رنـــدا غـــازى

حالمٌ بفلسطين

ترجمة: ميـريـام رزق اللـه

دار الشروق

حالمٌ بفلسطين

حالم بفلسطين
رنـــدا غـــازى

ترجمة: ميريام رزق الله

مراجعة وإشراف:

اميرة ابو المجد

احمد الزيادى

الطبعة العربية الثالثة ٢٠٠٣

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص. ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ (٢٠٢)
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الالكترونى:
e-mail: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/٣٤٢٠
الترقيم الدولى: ISBN 977 - 09 - 0922 - x

شكر

هناك أشخاص كثيرون أريد أن أشكرهم، سأكتفى بذكر أهمهم: ديفيد وهو يعرف السبب، مارينا التى حلمت معى، والداى؛ لأن ما أنا عليه، وما أقوله وأكتبه هو ثمرة ما حققاه: أبى لأنه هو الذى أفهمنى أن الفلسطينيين هم إخوتنا، وأن معاناتهم يجب أن تنتهى؛ بياتريس وكريستينا اللتين سمحتا لى بتحقيق حلم حياتى؛ وقبل ذلك أختى رشا التى رافقتنى فى كل سطر كتبته مبللا بالعرق من هذا الكتاب والتى ظلت بجانبى دائما وبصبر لا حد له.

شكرا

أنا صــامد..

أنا صامد صامد أنا صامد

وبأرض بلادى أنا صامد

وإن سرقوا زادى أنا صامد

وإن قتلوا ولادى أنا صامد

وإن هدموا بيتى يا بيتى

أنا صامد صامد أنا صامد

وبنفسٍ أبية أنا صامد

وعصا وشبرية أنا صامد

والراية فـ إيدى أنا صامد

وإن قطعوا إيدى والراية

بالإيد التانية أنا صامد

أنا صامد صامد أنا صامد

بحقلى وبستانى أنا صامد

بعزمى وإيمانى أنا صامد

بظفرى وأسنانى أنا صامد

وإن زادت فى جسمى جروحى

بجروحى ودمى أنا صامد

أنا صامد صامد أنا صامد

أغنيـــة فلسطينيـــة نظم

الشاعر صلاح الحسينى

واحـــد

ـ لو أعرف لماذا أنا دائما؟ هه؟ . . أليس هناك أحد يمكنه عمل ذلك بدلا منى؟ هه، هناك رامى . . كلفوه هو بالمهمة! أنا فاض بى الكيل! لست عبدا لكم! تبا لكم، أبدو لكم عبدا؟ هه، ربما أبدو كعبد؟ جهاد، ما رأيك، هل أبدو عبدا؟ هيا، قل الحقيقة! عبد أنا؟

ـ لا، لا تبدو عبدا يا إبراهيم! بتاتا، بالعكس، تبدو إمبراطورا! إمبراطورا إغريقيا يـ . . .

ـ كُف عن هذا التخريف يا جهاد! ثم ما هذا الاسم الذى أطلق عليك؟ ما معنى جهاد؟

ـ جهاد اسم جليل! أتعرف، إنه اسم من تلك الأسماء المحدثة . . المتحدثة . . المستحـ . . .

ـ المستحدثة! الأسماء المستحدثة فى وقت الحرب! لقد أعدت علينا تلك القصة ألفى مرة!

ـ بالضبط، شكرا يا نضال! ولا تتكلم هكذا لأن اسمك هو واحد أيضا من تلك الأسماء المتحد . . المحدثة . . المسـ . .

ـ المستحدثة!

ـ نعم، بالضبط، مستحدث فى وقت الحرب! وهو يعنى رجلا شجاعا، لا يستسلم، يقاتل! لأننا . .

ـ اسكت يا جهاد! لماذا لا تذهب أنت؟ كلا . . أنا لست عبدا . . لماذا يجب أن أفعلها أنا دائما؟ ربما أبدو عبدا ، أحمد ، ما رأيك ، هل أبدو عبدا؟

ـ هه؟ ماذا قلت يا إبراهيم؟

ـ أحمد ، دعك من هذا الكتاب اللعين وقل لى : هل أبدو عبدا؟

ـ هل تعلم أنه كتاب رائع . . هل كنت تعرف أن المدخنين أقل عرضة من غير المدخنين للإصابة بمرض الزهايمر؟

ـ أحمد ، اترك هذا الكتاب اللعين ، وأجب : هل أبدو عبدا؟

ـ لا أفهم لماذا تقولها بنبرة احتقار! العبيد . . منذ قديم الزمان ، عانوا معاناة كبيرة . . عملوا بعضلاتهم المفتولة ، وبقوة سواعدهم ، وتصببوا عرقا ، دون أن يتأثروا أو يظهر عليهم السخط لامتهان كرامتهم . . .

ـ لكن ما الداعى لكل هذا؟ أحمد ، لقد سألتك فقط : هل أشبه العبد؟

ـ لا أدرى ، أظن أن . . . آه ، وليد ، أخيرا حضرت!

ـ كم من الوقت يلزم لشراء علبة سجائر ، هنالك كشك للسجائر بزاوية الشارع ، ودكان فى الناحية الأخرى من الطريق . . .

ـ الناحية الأخرى من الطريق ، كما تسميها ، تبعد ستمائة متر!

ـ ولنفرض! أنت شاب ، يجب أن تدرب نفسك على الجرى! ثم هذه سجائر «فيليب موريس»! لقد طلبت منك «مارلبورو لايت» ، ألا تعرف حتى شراء علبة سجائر؟ خمسة عشر عاما ، ولا تستطيع القيام

بشراء علبة سجائر؟ أخبرنى بما يدور فى رأسك؟ ثم ما هذا الشىء الذى فى يدك؟

طراخ

ـ لا إله إلا اللّه ، ما هذا؟ حتى أمى لم تصفعنى هكذا ، ماذا دهاك يا أحمد؟ لم أفعل شيئا!

ـ منذ متى تدخن أيها التعس؟ ارم هذه السيجارة فورا . . لا بل أعطنى إياها . . . آآه أتعرف أننى لم أدخن منذ يومين؟ ولتكن تلك المرة الأخيرة يا غبى ، إن كنت تريد أن تكون واحدا منا فلا أريد أن أرى سيجارة فى يدك!

ـ لكنكم جميعا تدخنون!

ـ لكنك فى الخامسة عشرة من عمرك يا غبى!

ـ لكن محمدا ورامى يدخنان من سن الثانية عشرة!

ـ هذا من شأنهما! كم أنت غبى! ثم ، كيف تكون منا؟ ماذا دفعنا لضمك؟ كلا ، اشرح لى من فضلك لأننى نسيت فعلا . . . كيف كنا من الغباء لنضمك إلينا؟ هه؟

ـ أنا آسف ، أنا آسف يا أحمد ، أعدك ألا يتكرر ذلك ، أؤكد لك! سامحنى . . . إبراهيم ، قل له شيئا!

ـ هيا يا أحمد ، وليد عنده الحق! لن يفعلها ثانية ، هيا . . . اسمع يا وليد : فى رأيك ، هل أشبه العبد؟ قل لى الحقيقة . . هل وجهى وجه عبد؟

ـ عبد؟ حسنا، لا أدرى. . لا، لا يبدو لى كذلك، ربما قليلا، فكما ترى لك حاجبين كثيفين، وجبهة عريضة، وبشرة فى لون القهوة العكرة، ثم إن أذنيك متسختان دائما، وفتحتى أنفك كبيرتان. .

ـ كيف تجرؤ! أرأيت هذا. . «قهوة عكرة»؟ هل رأيت سوء أدبه!

طراخ

ـ آى! ولكن ماذا فعلت؟ آآآه، هذا موجع. . لِمَ تضربوننى كلكم اليوم؟ لتذهبوا إلى الجحيـ. .

طراخ

ـ حسنا، برافو، اذهب من أمامى وإلا صفعتك الثالثة، هل رأيت يا أحمد. . هؤلاء الفتيان تخطت صفاقتهم كل حد. .

ـ حسنا، لا أدرى ماذا أقول، ربما كنا قاسين بعض الشىء. .

ـ لا تكن ضعيفا هكذا! إنه الأصغر، وعليه نبنى آمالنا! مستقبلنا فيه هو، ألا تفهم؟! يجب أن نراقبه دائما! الأمهات يصلحن للصفع والتدليل، أما نحن فللصفع فقط! أفهمت؟ يجب أن نربيه، لكن يجب أيضا أن نصنع منه رجلا صلبا، وإلا وجدنا أنفسنا أمام رجل خائر العزيمة يغمى عليه من منظر الدماء!

ـ حسنا، ربما عندك الحق. .

ـ حسنا، لنعد لحديثنا الأصلى، هل أبدو لك أشبه العبد؟ كلا، اعذرونى، فليس من العدل أن أذهب أنا دائما إلى البئر! كما أن الماء لا يصل إليها منذ أكثر من أسبوع! ماذا بكم؟ ثم بعد ذلك أشبه العبد!

ـ لا أدرى بما أجيبك يا إبراهيم، فلا يمكن القول بأن لك وجها نبيلا . .

ـ وما علاقة ذلك بالأمر؟ انتبه قليلا، أنا إبراهيم سمير سيد آل رمضان، أترى أن هذا لا يهم؟ هه؟ أو ربما أشبه العبد . .

ـ حسنا، لا أدرى . . ريهام، فى رأيك، هل إبراهيم يشبه العبد؟

ـ يا إلهى، كفى يا جهاد! أتريد هذا الشاى أم لا؟ يا إلهى . . ستتوقف أم لا؟! هيا، توقف الآن! اختف من أمامى! هه؟ ماذا تقول يا أحمد؟! عبد؟ لا أدرى . لى صديق يشبهه فى مصر، لكنه شخص غنى جدا، سليل عائلة عريقة، ثرية منذ عدة أجيال .

ـ آه، أترى يا أحمد؟ انظر هؤلاء المتخلفين . شكرا يا ريهام! أنت رائعة . الآن اذهب أنت إلى البئر يا غبى! انظر هؤلاء البلهاء . .

ـ ماذا تريد، لن أذهب إلى البئر! وماذا إن قابلت جنديا؟ وماذا إن أصابت رأسى رصاصة؟ ستقتل نفسك ندما، وشعورا بالذنب، أليس كذلك؟ إلهى، يا للقسوة! وماذا إن طوقونى؟ وماذا إن قتلونى؟ أتريد أن أموت هكذا وحيدا مثل الكلاب؟! وبسبب غلطتك، وماذا بعد؟

ـ حسنا، هيا، لا داعى لكل ذلك! وليد! وليد!

ـ نعم! ماذا هنالك؟

ـ خذ الدلو، واذهب لإحضار الماء .

ـ أنا! لكنى عائد لتوى من شراء السجائر .

ـ لا يهمنى ذلك البتة ، اذهب قبل أن تنال صفعة أخرى!

ـ حاضر . . سأذهب ، أف .

ـ هل أنت سعيد يا أبله؟ إذا قتل الجنود أحدا الآن ، سيكون غلاما فى الخامسة عشرة!

ـ ياه . . يا إلهى ، لا تُحمّلنى الذنب! وماذا إن قتله الجنود؟ اسمع ، خذ كتابى ، وضعه فى الحقيبة . سأذهب مع وليد ، وسأعود على الفور . .

ـ يا إلهى ، كم هو أبله! يجب أن نكلمهم عن الموت حتى يتحركوا . آه من هؤلاء الفتيان . .

يلقى إبراهيم نظرة خاطفة على كتاب أحمد ، لكن الكتاب لا يحرك شيئا فى نفسه ـ لا شىء ـ فهو لم يحب الكتب قط ، ولم يتوصل أبدا لتحديد السبب . . كانوا يجبرونه دائما على القراءة ، فى المدرسة لكنه كان يكره ذلك . . يكرهه . . كان ذلك يزعجه بشدة . . كان ـ على النقيض تماما ـ يفضل لعب كرة القدم مع أصدقائه ، فى حين أن أحمد ـ الذى كانوا يضعونه دائما لحراسة المرمى ؛ لأنه كان أقلهم فائدة ـ كان مولعا بالقراءة . . حتى داخل الحمامات . . حتى فى أثناء اللعب ، وأثناء حراسة المرمى ، بين الركلة والأخرى ، حتى وإن قيل فى نهاية الأمر أنه لم يصد كرة ، ولا حتى واحدة ، لم يكن ـ أبدا ـ قادرا على اللعب ، لكن فى الواقع كان لابد من حارس للمرمى ، ولم يكن هناك أحد على استعداد للقيام بتلك المهمة ؛ لأن كل واحد كان يرغب فى أن يصبح أحسن هداف . . كلهم كانوا يريدون أن يكونوا أبطالا دائما . . فى كل شىء . .

الكتاب الوحيد الذى يقرؤه إبراهيم عن طيب خاطر هو القرآن الكريم، وقد ورث حب قراءته عن والده الذى كان مؤذنا فى أكبر جامع فى المدينة، والذى كان يتردد عليه أكبر عدد من المصلين. كان أبوه شديد التدين.. رجل صالح.. قتل فى الحرب ـ هو الآخر ـ إلا أن حادث مقتله لم يظهر على شاشة التليفزيون، لكن فى الواقع، لا يهم أن يعرف العالم بما أن العالم لا يأبه البتة ـ ليمت واحد أكثر.. واحد أقل.. ما هى إلا أرقام.. أفهمت مجرد أرقام.. ويكتفى الناس بقولهم «يا خسارة»، بل قد لا يقولون شيئا بالمرة؛ لأنهم مشغولون أكثر بتغيير القنوات.. لكن فى الحقيقة ذلك لا يهم.. فما الفائدة؟ إنها ليست معركتهم.. لا تخصهم.. إنها بالتأكيد حرب الفلسطينيين وكفى،.. ليست حرب هذا الجزء من العالم الذى يشاهد التليفزيون.. بالتأكيد لا.. حتى لو تكلم وزير خارجية بلد ما مع قادة طرفى النزاع.. حتى لو عقد الرئيس الأمريكى اجتماعا.. حتى لو صرح أمين منظمة الأمم المتحدة بقرارات تبعث على الثقة والاهتمام، فذلك لا يهمهم، وهم يعرفون ذلك جيدا؛ لأنهم ـ هم ـ الذين اختاروا أن يقفوا بعيدا، وكما تعرف فإن الأمر بالنسبة لهم سيان ولا يهمهم بتاتا ـ فهم مشغولون بأمور أخرى.. والفلسطينيون يعرفون ذلك.. يعرفون ذلك جيدا.. ربما وجد بينهم مصرى، أو سورى، أو أردنى! لكن ذلك لا يهم، فسيظلون اثنين أو ثلاثة.. والواقع أن الفلسطينيين يعرفون أنهم وحيدون، أيحزنكم ذلك؟ لكن تلك هى الحقيقة ـ نعرف ذلك كلنا ـ ننتظر كلنا أن يهزموا.. نعتقد أنهم سيهزمون.. نشيح بأنظارنا، ألا يبدو ذلك أسهل كثيرا؟

أُغتيل زعيم منظمة التحرير الفلسطينية.. ماما أمريكا وبخت

إسرائيل (حقا!) . . العالم يتطلع . . الفلسطينيون يردون . . ماما أمريكا تصفهم بالإرهابيين (حقا!) . . العالم يتطلع . . واضح أن الإسرائيليين ليسوا إرهابيين - كلاااا - ليسوا إلا جنودا مساكين يحملون بعض المدافع الصغيرة وقليلا من الدبابات . . انظر فى المقابل للفلسطينيين . . يا لهم من قتلة سفاحين . . بتلك الأسلحة ذات التقنية العالية فى مقدمة الجيش، والأجهزة الحديثة شديدة التعقيد - هل هى حجارة؟ - تلك الحصى الفتاكة والمصوبة بدقة، والكتائب العسكرية شديدة التنظيم . . العالم يتطلع . . إبراهيم يشرب كوب ماء . . وليد وأحمد يعودان . . لم يقتلهما أى جندى . . والخوف قُهر مرة أخرى . . ياه . . كم هذا مخيف! . وزير الشئون الخارجيَة الإيطالى تحدث مع عرفات . . لكن ما جدوى ذلك؟ إسرائيلى فى الستين من عمره لقى مصرعه بالضفة الغربية . . شارون يطالب بهدنة من سبعة أيام . . إبراهيم يمسك فى يده بصورة والده . . ينظر إليها . . تكتسى ملامح وجهه بنظرة فخر . . وبريق فى عينيه . . تستمر ماما أمريكا فى إرسال هدايا صغيرة للإسرائيليين . . نعم هدايا صغيرة . . مجرد هدايا صغيرة للقتل . . أسلحة . . العالم يتطلع . . تنحدر دمعة على خد إبراهيم . . ولكن لا . . لا . . إنه رجل . . رجل . . ربوه دائما على ذلك . . على أن يكون رجلا . . لا للدموع . . لابد أن يكون قويا . . لابد . . بالقوة . . كيف السبيل للانتصار فى الحرب وهو يبكى؟ لا يمكن . . العالم يتطلع . . يتطلع . . العالم يتطلع .

ـ ريهام! ريهام! أسرعى . . اللعنة . . ماذا تفعلين؟ آه، حسنا، أكيد عندك الحق . . مشغولة دائما بتجهيز الطعام، أنت . . أشعر بالأسف لأجلك . . لعل المجازفة أفضل . . المشى على الأقل . . الخروج إلى الهواء الطلق . . بدلا من الجلوس بالبيت لإعداد الطعام للجميع . . ماذا نأكل؟ حمص ثانية، يا إلهى! ألا تعرفين إلا طهى الحمص؟

ـ إبراهيم، إنه حمص بالصلصة اليوم، وأنا ـ لعلمك ـ أستطيع طهى أصناف أخرى كثيرة، ولكن بما أن وليد لا يُحْضِر لى سوى الحمص من البقال، فماذا عساى أن أطبخ غيره؟

ـ ولماذا لا يحضر هذا الغبى سوى الحمص؟

ـ فى الغالب؛ لأن المال الذى تعطونه إياه لا يسمح إلا بشرائه! إنها نظرية بسيطة، اعقلوها.

ـ ماذا هنالك يا امرأة، أتسخرين منى؟

ـ المرأة لها اسم، يا رجل.

ـ لا تتهكمى علىَّ.

ـ وأنتَ، لا تسىء أدبك.

ـ كم أود أن أعرف لماذا تزوجكِ نضال؟!

ـ لأنه ليس مثلك والحمد لله! والآن، ناد على الآخرين فالأكل جاهز، وتوقف عن تدخين تلك السيجارة الكريهة التى تكاد تخنقنا فى هذا الجحر، وأنا التى لم أمسك بسيجارة قط فى يدى تفوح منى رائحتها أكثر منكم، وأشعر برئتىّ تتمزقان!

يجلس الرجال حول المائدة . . يأتي وليد بالخبز . . تضع ريهام ثلاثة أو أربعة أطباق على الطاولة الصغيرة . . يغمس كل واحد خبزه فى الصلصة ، ويتناول ملعقة من الحمص . . يأكل الجميع فى صمت . . غارقين فى أفكارهم . . وحده وليد يستمر فى الشكوى لأنه محصور فى الركن بين محمد صاحب البنية العريضة غير المبال به ، وإبراهيم الذى يجلس على المائدة ويمد ذراعيه ورجليه دون مراعاة لمن يجلس بجواره . ثم يخيم الصمت . . لا يُسمع إلا صوت الملاعق ، والشفاة التى ترتشف الصلصة . . ثم يتكلم إبراهيم . . يقول إن البلدة المجاورة مات فيها اليوم ثلاثة فتيان . . حيث حضر جنديان . . وسمعا جلبة . . فالتفتا ، وأطلقا النار . أصيب أحد الجنديين بحجر . . جرح بسيط عند العين . . ويرد نضال قائلا إن جنديا إسرائيليا قُتل رشقا بالحجارة فى رفح ، ويضيف رامى أن امرأة قتلت . . وأصيب زوجها بجراح خطيرة فى الخليل على يد جماعة من الجنود الإسرائيليين .

ببطء . . ينهضون . . ينشغل كل منهم بشىء . . واحد يعود لعمله . . ريهام تذهب لغسل الأطباق وتحضير الشاى . . نضال ينهض لمساعدتها . . ويتبعه إبراهيم ليقول له شيئا .

أحمد عنده مسدس . . وجده مع جثة جندى إسرائيلى . . يخرجه كل يوم وينظفه بعناية . . انتبهوا! . . الأمر يبدو مهما جدا . . ذات مرة طلب منه وليد أن يلمسه ، وقال له أحمد لا . . لأن ذلك خطر . . وألَحّ وليد . . لماذا يكون ذلك خطرا؟ وفى لحظة معينة لمسه . . أخذه فى يده . . انقض عليه أحمد و . . بوووم . . حدثت فرقعة . . ثم صرخة . . هرول الجميع إلى الحجرة . . وحين رأوا وليد على

الأرض . . ويديه على رأسه . . وأحمد ينحنى بجواره . . يرتجف . . انفجروا جميعا فى الضحك . . يا الله . . كم هو غبى . . كم هو غبى . . أو بمعنى أصح كم هما غبيان . . أحمقان . . جبانان!

يتجمعون معا . . يشجعون بعضهم البعض . . ويضحكون من سخافتهم . . يضحكون . . كان من الممكن . . كان من المفروض . . أن يؤخذ الأمر بجدية فى موقف كهذا . . إنها الحرب . . وليس شيئا آخر . . هناك بشر يموتون . . أرواح تزهق . . مصائر . . حيوات . . أتفهمون؟ حيوات . . لكن تظل هناك القدرة على الضحك من موقف هزلى ـ تظل هنا ـ ربما لتفادى البكاء . . ربما لأنهم يريدون إقناع أنفسهم أن هناك شيئا عاديا فى حياتهم . . لأنهم يريدون استعادة هدوء الأشياء المألوفة . . وهكذا . . هم يعرفون ذلك . . رجال بالغون فى مواجهة الحرب . . أطفال يلعبون أدوار الكبار ؛ لأنهم مجبرون على اللعب . . كبار يتمنون أن يصيروا صغارا . . أجساد وأفكار كبار . . لكن مشاعر وضعف ومخاوف صغار .

الحرب أنضجتهم . . نعم . . لم يرغبوا ذلك . . لكن هكذا صار الأمر . . فها هو . . جمال . . عشرون عاما . . شاب . . بسيط برىء . . لم يحصل حتى على شهادة متوسطة . . لم يكن يعرف حتى من هو كوفى أنان (يوم رآه فى التليفزيون سأل من يكون) . . هه ، حسنا . . كان يزورهم أحيانا . . يدخن سجائرهم . . يصلى معهم . . يأكل الحمص معهم . . يقبل نصائحهم . . يطلق السباب على شارون . . سفاح قذر . . دون حتى أن يعرف شكله . . أو ما فعله فى الحياة ـ كان يعرف فقط أنه سفاح قذر . . هكذا كانت الحال . . جمال حمل كراهية لم تكن منه وحده ، بل كراهية شعب بأسره . . وتصرف

بحيث أصبحت جزءا من شخصيته (التى لم تكن بارزة بالقدر الكافى. . كان لا يتكلم أبدا . . يأكل قليلا . . يدخن قليلا . . لا تطرف ولا مثل أعلى فى الاستشهاد) . . هذا هو جمال الذى يبصق التبغ على الأرض . . اغتصب أبوه أمه وقتلها . . وُضِع أباه فى السجن لكنه انتحر بأن شنق نفسه بملابس الحجز . . إخوته، كلهم أصغر منه . . هاموا على وجوههم فى الطرقات . . تزوجت أخته من رجل دائم الغياب عن المنزل . . (هكذا كانت تلك الأسرة المفككة) . . تلك الشخصية الهامشية . . تلك الكلمات ـ سفاح قذر ـ مبصوقة مع التبغ على الأرض . . دون أن يعرف ـ فى حقيقة الأمر ـ لماذا . . هكذا . . هكذا فحسب . . هكذا كبر جمال . . على نحو سيئ . . على عجل . . دون إمكانية الاختيار ـ غير المتاحة لأحد ـ وكان الجميع يعرفون أن ذلك سيحدث يوما . . كان الجميع يعرفون ذلك . . لا بد أنه كان سيفعل شيئا إن آجلا أم عاجلا . . لم يكن أحد يريد ذلك . . لا أحد . . كلا جمال كلا . . لماذا؟ . . هناك سبل أخرى . . لكنه على العكس . . اقترب من إحدى قواعد قاعدة الجنود الإسرائيليين . . تركهم يفتشونه، ثم فى لحظة معينة . .

فى لحظة معينة انفجرت القنبلة . . تفتت جسده إلى شظايا وأشلاء طرية من اللحم . . انفجر جسده . . وفجر وحده نقطة تفتيش إسرائيلية . . لقى خمسة جنود مصرعهم معه . . خمسة . . ومع وجود المئات منهم فى كل مكان، تساءل الناس: لماذا؟ . . لماذا تضحى بحياتك لقتل خمسة فقط من الأعداء؟! . . عدد تافه . . ثم إن

دولتك فى حــاجـة إليك بشكل آخــر . . لماذا . . لكـن لا أحــد عـنده إجابة . . نُقَبِّلَك . . تَذَكّر . . سنفتقدك . . أنت شجاع . . حقا . . أنا جـاد فى كـلامى . . لا أدرى إن كنت أملك القـدرة لـلقـيـام بمثل ذلك العمـل . . سنذكرك جميعـا . . سننتصـر . . سننتصر بفضلك أيضا . . ليحفظك الله . . وتركوه يرحل ـ تركوه يرحل ـ وبعد حوالى عشرين دقيقة . . وعلى مسافة بضعة كيلومترات انفجرت قنبلة . . انفـجر جمـال . . ونقطة تفتيش وخمسة جنود ـ أصيب آخرون ونجا قليلون ـ ولـم يتكلم عنه التليفزيون قط . . بل تكلم عن عرفات الذى كان عليه أن يرد على شـارون الذى كان يريد هدنة سبعة أيام . . لكـن لـم تكن تلك هى الحرب، لـم تكن، ولا حتى كانت تلك هى الحقيقة . . كـان الأجدر بهـم أن يتكلموا عن جمال، لا عن شـارون . . ترى ماذا يفعل شارون الآن . . ربما يتناول الشاى فى منزله . . لكن هذا هو ما يحدث دائما . . دائمـا . . ليس بيد أحد حيلة . . وجمال لم يعرفه أحد . . لـم يعـرف أحـد أنه كـان يدخن سـجائر «درام»، ولا الكلمـات التى كـان يقولها ـ سفاح قذر ـ لن يعرف أحد ذلك أبدا . لكن تلك هى الحرب .

اثنـــــان

هناك أشياء تحدث بالصدفة . . ربما يحدث ذلك باختيار البشر . . مجرى الأحداث الغريب . . المصادفات . . الواقع هو أننا نواجه أنفسنا عند مرحلة ما من حياتنا ، ونتساءل : كيف وصلت إلى هنا؟ وهذا ما سأله إبراهيم لنفسه . . كيف وصل به الأمر إلى هنا . . كيف كانت حياته قبل العثور على هدف وأشخاص يصل معهم إلى الهدف؟ أشخاص يفكرون مثلك . . لهم نفس أفكارك ومعتقداتك . . ونفس الإصرار والعزيمة . .

إبراهيم كان فى الواحدة والثلاثين من عمره ، وخلفه حياة لم تكن سهلة .

أمه . . سيدة أردنية رائعة الجمال ، تعرفت على والده أثناء مؤتمر عن علم الذرة فى عمان ، قبل عدة أعوام . . كان الاثنان مهندسين شابين . . مثقفين ، يمتلئان بالرغبة فى الحياة .

انتقل والده مع أسرته إلى الأردن تاركا غزة بحثا عن فرصة عمل ، وكان لا يزال يبحث عن عمل حين تزوج من سلمى عزيز عبدالرحمن .

عاشا بضعة أعوام فى الأردن ، ثم رحلا إلى إسرائيل . كانت عائلة فتحى ـ والد إبراهيم ـ قد سبقته إلى هناك ، وكان يرغب فى لقائها .

ولد إبراهيم بعد ثلاثة أعوام من الزواج. كان طفلا جميلا ممتلئ الخدين، كان يزن أربعة كيلوجرامات ونصف الكيلوجرام عند الولادة، وكان دائم المرح والابتسام.

فى الخامسة، فقد والدته. كانت قد مرضت بنوع فتاك من سرطان الدم، وماتت بعد قرابة شهر من العذاب.

من الصعب شرح لطفل أن أمه قد ماتت.

صعب لأنه يصعب علينا تقبل الموت، أو فهمه. ما هو مستقبل طفل صغير بلا أم؟ لماذا يلزم على طفل صغير أن يكبر دون سند الأمومة؟

كان فتحى يعذب نفسه بتلك الأفكار، فكان يهمل ابنه دون قصد.

كبر إبراهيم دون توجيه الأب أو الأم. كان طفلا قليل الكلام، منعزلا، عبوسا.

فى المدرسة، لم يكن له أصدقاء. فى البيت، لم يكن يفعل شيئا إلا المذاكرة والتحديق - فى ساعات فراغه - فى جدران غرفته.

أحيانا كان يقترب من عتبة غرفة والده، وينظر إليه وهو يصلى صلاة السنة بحركة بطيئة يضبطها إيقاع شفتيه ويحكمها نظام دقيق وثابت للصلوات، أو يسمعه يتلو آيات القرآن الكريم بصوته العميق الرخيم، الذى كان يبدو له أحيانا وكأن به رعشة.

ذهب إبراهيم إلى الجامعة. وسجل اسمه فى كلية الحقوق، وكان ذلك يرجع بعض الشيء لقلة معرفته. كانت دراسة الحقوق تبدو له مفيدة، قد تمكنه يوما من الدفاع عن حقوق شعبه ليس بالقوة فحسب بل بالسياسة أيضا.

لم يكن إبراهيم من النوع الذى يفتح قلبه، إلا أن ذلك كان يبدو له أمرا ثانويا.

كان والده يكرس له وقتا قليلا: كان يستيقظ من النوم ويذهب لفتح المسجد لصلاة الفجر، وكان يبقى هناك للصلاة.. دقائق.. ساعات.. بلا ملل أو كلل.

كان إبراهيم يمتلئ زهوا فى كل مرة يسمع فيها صوت أبيه القوى عبر مكبرات الصوت يدعو كل المسلمين إلى الصلاة.

كان يعده أمرا جديرا بالتقدير أنه بعد أن فَقَد والده شريكة عمره، اشتد إيمانه بدلا من أن يفتر. كان ذلك أمرا جليلا بالنسبة له، وانعكس عليه ذلك بزيادة إيمانه هو الآخر.

لم يَبْد والده شغوفا إلا بشىء واحد بخلاف العقيدة: الحرب.

الحرب التى كانت تغلى بداخله، تبدو فى عينيه، منذ يوم ميلاده.

الحرب التى قتلت زملاءه.. أصدقاءه.. أقاربه.

الحرب التى كانت تتغذى على الدماء والدموع.. والتى كانت تضرب.. بشراسة.. وبقوة.. على أبواب الفلسطينيين.

ذات مرة، سمع إبراهيم والده يتحدث إلى جماعة من المصلين بالمسجد.

كان فى العشرين من عمره، وكان ينظر بإعجاب شديد لأبيه الذى كان ـ فى الأوقات النادرة التى يتحدث فيها إليه ـ يذكره باستمرار أن يكون رجلا.. رجلا.. قويا.. عليك أن تقاتل، يا إبراهيم.. عليك أن تفرض وجودك.. هذا بيتك.. هذه أرضك.. كل ما تملك.. دافع عنها بحياتك.

كان والده يقول لتلك الجماعة من المصلين بالمسجد إنه حين يدخل العدو بيتك ويسلبك ملابسك،.. وحين يحتل حجرات بيتك.. ويترك لك ركنا بالردهة.. فقط ما يسمح لك بالوقوف، أنت وعائلتك.. قال ذلك بالنص.. فقط ما يسمح لك بالوقوف أنت وعائلتك، ثم بعد ذلك.. بعد أن يسلبك ما تملك.. يقول لك ببساطة «لنصنع السلام».. إن قلت لا.. أتكون إرهابيا؟ ألا تريد السلام؟ بالطبع تريده، كان والده يقول، لكن..

لا سلام بدون عدل.

هذا ما كان يقوله.. وعيناه مغلقتان.. وهو يبحث فى ذاكرته عن صور الفلسطينيين الذين قتلوا.. كان يقول هذا.. وهو يبحث عن صور زوجته، وأفراد عائلته، وبلدته.. كان يقول..

لا سلام بدون عدل

توقف إبراهيم . . نسى محاضرات الجامعة . . خلع نعليه ودخل إلى المسجد . . جلس على الأرض وانضم إلى المصلين يستمع إلى والده يقول . .

نحن على صواب . . تذكروا ذلك جيدا . . على صواب . . وحين كان يلمح ظلا . . ولو صغيرا . . على أحد الوجوه . . ظل يشك . . كان يقول . .

أرض كنعان . . تذكروا . . أصبحت أرض إسرائيل فيما بعد . . تذكروا . . بعد انتصار الإسرائيليين فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد . . تذكروا . . هذه أرضنا . . ملكنا . .

والجهاد شرعى . .

شرعى . .

تذكروا أن الله قال لنا دافعوا عن أرضكم وأهلكم . . ولو اعتدى أحد على أرضكم واستولى على داركم وادعى الأكاذيب على ما لكم . . قاتلوا . . استعملوا أسلحته . . ومخططاته . . وأفعاله . . واصنعوا به مثل ما يصنع بكم . . وستكون تلك حربا مقدسة . . الجهاد .

ساعتها . . نظر إبراهيم فى عينى أبيه . . إصرارهما . . ذاك الإصرار . . وأحس بالخوف يمتلكه حتى النخاع ؛ لأن هذا الرجل بدا مختلفا عن أبيه . . رجل وهب نفسه للوطن وللمعركة ـ معركة شخصية ـ لأن أباه كان يصارع عدوا داخله . . من كان هذا العدو؟

الألم . .

كان الألـم هو ما يصـارعـه داخل نفـسـه ؛ لأنه كـان يـجب أن يكون رجلا . . دائما . . وبرغم كل شيء . .

ووالده . . بتلك النظرة . . وذلك الألـم . . وهذا الإصـــرار على القتال . .

كان رجلا .

ذات مساء ، بعد العشاء . . كان إبراهيم منهمكا . . كان فى غرفته يذاكر ما لديه من محاضرات بالجامعة . . ثم دخل والده الغرفة يحمل المصحف فى يده ، وتوقف لينظر إليه وهو منكب على أوراقه . . يبدو ضعـيفـا جدا وصـغيـرا جدا . . وتذكـر نفسـه وهو لا يزال بعـد ، فى العشرين من عمـره . . عديم الثقة بالنفس وشديد البراءة . . تذكر نفسه . . وضغط بقوة على غلاف المصحف المصنوع من الجلد . .

لا شك أنه فلتت منه تنهيدة ، أو شيء ما ؛ لأن إبراهيم التفت ونظر إليه . . وقال :

أبى . .

قالها إذ كان قد شعر لحظتها فقط بوجود أبيه ،

فتقدم فتحى ووقف أمامه . .

وتلى الآية الكريمة :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

نظر إليه إبراهيم دون أن يفهم السبب وراء تلاوته تلك الآية .

- إبراهيم ، إبراهيم ، استيقظ ! بسرعة !

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ! ماذا؟ !

استيقظ إبراهيم فجأة ، ونظر حوله بهلع . أمامه كان يقف ابن عمه جمعة . . مذعورا . . باكيا . . مضطربا . .

كان يبكى . .

كان جمعة رجلا . . وكان يبكى . . ثم صرخ :

- أبوك !

شعر إبراهيم بالهلع يعتصر قلبه . . يداه تتجمدان فجأة . . يحس برعشة تهزه . . وانفجر :

- ماذا؟ أين أبى؟ أين هو؟

أمسك به جمعة من ذراعه ، وجذبه خارج السرير . .

وقال له . .

أبوك . .

أبوك . .

جريا معا خارج المنزل ، واتجها فورا إلى الميدان ، حيث اجتمع حشد من الناس . . سمع عويلا . . رأى النساء تنتحبن . . الأطفال يبكون . . رآهم جميعا يجرون . . ثم رأى أباه . .

ممددا على الأرض . .

والكل ينظر إليه . . والدم يلطخ المكان . .

والمصحف مدنس بالدماء وملقى على الأرض . . مفتوح . . ممزق الغلاف . .

أبوه على الأرض . . كل هذا الدم ! . .

جاء فى أمان . . فى يده القرآن . . بدأ يتلو الآيات . .

لعن الجنود . . أدان عُنفهم ووحشيتهم . .

احتشدت جماعة من المصلين تردد الآيات . . التهبت نفوسهم . . وتزايد سخطهم . .

ارتفعت كل الأيدى نحو السماء . . وتعالت أصواتهم . .

تقافز الأطفال صارخين أيضا . .

رفع فتحى صوته أكثر فأكثر . .

صارت مظاهرة . . تصاعد الغضب . .

هاج الأولاد . . امتلأت نفوس النساء بالكراهية . .

شعر الجنود بخطر داهم . .

تدخلوا . .

بدءوا بإطلاق النار فى الهواء . .

لكن الناس ـ وقد اعتادوا صوت الرشاشات ـ واصلوا الصراخ . .

مرددين كلمات المؤذن . .

قَلِق الجنود أكثر فأكثر . . صاروا مرعوبين . .

أشار فتحى بيده نحوهم . .

يتهمهم بسفك الدماء . .

بتدنيس المقدسات . .

ساندت الجموع صوته بصراخها . .

لم يكن سوى شيخ . . لم يفعل شيئا سوى تلاوة بعض الآيات . . لكنهم تدخلوا . . كان عددهم ضخما . .

وفى النهاية أطلقوا عليه النار . .

لاشك أنه فعل ذلك مدفوعا بقوة الإيمان . .

معتقدا أنها كافية . .

لكن الأمر انتهى به ممددا على الأرض . . والمصحف إلى جواره . .

رحل تاركا ابنه وحيدا مرة ثانية .

إبراهيم شق طريقا لنفسه وسط الجموع . . متقدما ببطء . .

شعر وكأنه ميت . .

شعر وكأن كل ما يحدث شريط سينمائى . .

هذا لم يحدث . . أبوه لم يكن على الأرض . .

وكل هذا الدم لم ينزف أبدا .

اقترب من جسد أبيه . . انحنى . . تأمل اللحية الداكنة . . العينين المغمضتين . . الشفتين المفتوحتين قليلا . .

واستعاد عشرين عاما من عمره . . وسمع صوت والده . .

يتلو آيات الله بإيمان وورع . .

مد يده نحو المصحف . . وقد اتسخ وتهتك . . أخذه فى يده . .

وسمع نفسه يصرخ .

ترك إبراهيم الجامعة . .

وأخذ يطوف بين قرى غزة . . سنوات طويلة . . المصحف فى يده . . وفى رأسه فكرة واحدة :

أن يكون رجلا .

أن يكون الرجل الذى كانه أبوه . . وأن يدافع عن وطنه . . يجلب السلام لشعبه . .

يثأر لكل القتلى . .

لكل هذا الألم .

أحيانا كان يُشَغل الراديو ، ويسمع الأخبار ، ويشعر بنار تحرقه وتدفعه للخروج .

كان يشعر بأنه فى سبيله إلى الجنون .

كان ذلك فى ١٩٩٢ ، وفاز حزب العمل فى الانتخابات ، وهكذا عاد رابين رئيسا للوزراء من جديد .

وبحكم أنه كان نصف أردنى ، شعر إبراهيم بأنه خائن ، فالملك حسين عاهل الأردن ـ كما حكى له أبوه ـ هجم بجيشه فى ١٩٧٠ على الفلسطينيين مما أسفر عن مذبحة كبيرة .

كان أيلول الأسود يعود باستمرار إلى ذاكرته . لم يقو على استيعاب هذه المذبحة ودلالاتها . . وما أقدمت عليه الأردن ـ فى ١٩٨٥ ـ من التطوع كوسيط لحل القضية الفلسطينية خفف بالكاد من حنقه وضغينته . انسحب الإسرائيليون من أراضى غزة بعد ثمانية عشر عاما من الاحتلال ، لكن إبراهيم لم يتمكن من أن ينزع صورة والده من ذاكرته . . والمصحف . . وآخر ليلة تلا فتحى فيها عليه تلك الآية .

إبراهيم كان يريد أن يموت هو الآخر . . فى سبيل الدفاع عن وطنه وأن يحظى بمكانة عند الله . . الحياة ومنافعها المادية لم تعد تعنى له شيئا . .

كان لا يريد سوى السلام . . السلام لشعبه . .

وذاك السلام الداخلى الذى فقده منذ زمن بعيد . .

لكنه لم يقدر على نسيان تلك الجملة . .

لم يقدر . .

لا سلام بدون عدل .

كانت تلك تاسع قرية يزورها ، لكنها بدت له أكثرهم وحشة . .

ما من إنسان على مرمى البصر . . فقط بضع بيوت مبعثرة هنا وهناك . . مسجد صغير . .

محلات قليلة، أغلبها مغلق ومتداع . .

مشى . .

مشى طويلا قبل أن يتوقف . .

توقف عند سماع صوت آذان الظهر . .

هكذا توقف إبراهيم ونظر حوله . .

رأى ولدا صغيرا يمشى بصعوبة . .

كان يحمل دلوا مملوءا بالماء، يسنده على كتفه بيد . .

وبالأخرى يمسك بيد بنتا صغيرة . .

كانت تبدو فى الثالثة أو الرابعة من عمرها . .

لا أكثر . .

كان وجهاهما متعبين . . متسخين . .

متعبين . .

متسخين . .

وكانا يتقدمان بصعوبة بالغة، هكذا . .

كما لو إن كل خطوة كانت تكلفهما الكثير من المشقة . .

شعر إبراهيم بقلبه مثقلا . .

هذا الهم . .

ذكره بيوم مقتل والده . .

وأطبق على صدره . .

حِمْل الضمير . .

إبراهيم كان يعلم أن والده قد عانى . . عانى حتى آخر يوم . .

وصوته كانت تشوبه رعشة تكاد لا تحس . .

فى كل مرة كان يقرأ فيها القرآن . .

وإبراهيم كان يمكنه المراهنة على أنه . . حتى فى اليوم الأخير . .

وأثناء تلاوته القرآن . .

ارتعش صوت والده قليلا . .

تذكر كل هذا . .

لما رأى الطفلين . .

جاهد فى أن يقترب ، وأن يتحدث إلى الولد الصغير . . أن يقول له صباح الخير . . صباح الخير . . أن يتحمل نظرة الرعب والتهديد ـ معا ـ التى فى عينيه . . أن يرى والده فى هذا الرجل الصغير . . فى هذا الطفل الكبير . . ورأى التوجس فى عينيه . . وقال له أساعدك . . أنا سأساعدك . . لا . . لا تخف . . أريد فقط أن أساعدك . . لكن عبثا . . لا . . لم يرض الصغير أن يعطه الدلو . . اللّه أعلم . . ربما ظن أن إبراهيم أراد سرقته . . فدفعه الولد بذراعيه . . تراجع إبراهيم . . وأسرع الصغير مبتعدا ممسكا بالدلو والطفلة . . .

بعد انتهاء صلاة الظهر، ظل إبراهيم جالسا على الأرض لعدة دقائق . . في هذا الموضع الذى يسوده السلام . .

موضع السلام . .

إبراهيم كان يرى أن الجنة لابد أنها تشبه الجامع قليلا . .

حيث يسود السكون وحده . . السكون الذى يوحى بالأمان والاطمئنان

السكون الحقيقى . .

المسالم . .

الهدوء . .

وذلك الكمال . .

أغلق عينيه، شعر وكأنه ارتفع إلى منزلة رفيعة، حيث لم تعد آلامه سوى ذكرى سيئة . .

لكن ذلك الشعور اختفى . .

لحظة أن أدرك أن هناك من يراقبه . .

أحس بأنه مراقب . . فانتبهت حواسه . .

نظر حوله ورأى شخصا يحدق فيه . .

كان رجلا طويلا جدا ونحيفا . .

ناحل الوجه . . حاد الملامح . . دقيق الشفتين . . مقوس الأنف . .

وعينيه واسعتين جدا غير متناسبتين مع سائر ملامحه . .

كان يبدو رجلا لطيفا ودودا . .

واستمر يحدق فى إبراهيم ، لكن دون تحفز أو ريبة . .

بل بلطف . .

كان يشعر بالفضول . .

لكنه لا يريد أن يحرجه . .

قام إبراهيم ومشى بخطوات بطيئة نحو باب الخروج من المسجد . .

تناول حذاءه ولبسه . . ثم . . وهو لا يزال يتحرك بحساب . .

خرج . .

وهو يشعر بتلك النظرة الثاقبة تكاد تخترق ظهره . .

ثم إنه كان يعرف ذلك . . أعنى . . إنه شعور غريب . . ليس هاجسا . . ليس مصادفة . . نحن نعرف فحسب . . شىء يأتينا هكذا . . لا يمكن السيطرة عليه . . بل يُحَس ـ ببساطة ـ داخلك . . وفى الواقع أننا نستعد له لأننا نعرف أنه سيحدث . .

سيحدث . .

هكذا . . كان يعرف ذلك . . تماما مثلما حدث . . ولعله بتصرفاته المحسوبة أراد حَثَّ ذاك الرجل . . وقد تصرف بتلقائية ؛ لأنه كان يعرف أن الرجل سيكلمه . .

والواقع أنه كلمه . .

فَعَلَها . . وقال له . .

أهلا ، أهلا . . قال له . . إنها المرة الأولى التى أراك فيها هنا فى المسجد . . لعلك قادم من بلدة أخرى . . قالها له هكذا . . بشفتين تتحركان وكلمات تتطاير . .

تبدو شديدة الخفة . .

وكأنه قال له شيئا تافها . . من نوع أرأيت الجو اليوم؟ كم هو جميل! . . أو كم هو جميل لون حذائك! تفاهة . . لا . . بالعكس . . قال له شيئا مهما . . مهما . . لا . .

وأجابه إبراهيم . .

اسمى إبراهيم .

كان الرجل البالغ الطول النحيف . . ناحل الوجه . . حاد الملامح . .

اسمه نضال . .

وفى الواقع لم يكن إلا فى العشرين من عمره . . كان فتى شابا . .

لكنه كان يبدو ناضجا . . لم يعرف إبراهيم السبب . . لكنه كان يبدو ناضجا . .

وكانت كلماته تتطاير . .

وكان يعامل إبراهيم كأنه أخوه . .

نضال كان يعيش مع أخته وأمه . . أبوه كان قد هاجر إلى سوريا . .

كان يبدو شابا يمتلك سلاما داخليا عظيما . .

إبراهيم وجد ذلك غريبا . .

أن يوجد شخص شاب بهذه الرقة . .

واثق هكذا من دوره فى الحياة . .

إبراهيم وجد ذلك غريبا . .

راق له نضال كثيرا . .

ذاك اليوم تحدثا قليلا ، وتمشيا كثيرا . .

لاحظ إبراهيم أن البلدة منقسمة إلى منطقتين . . واحدة شبه مهجورة . . قطعها سيرا عند وصوله . . والأخرى يتركز فيها الناس . .

فيها وَجَد إحدى المقاهى مفتوحة . . ونوافذ المبانى الرمادية القديمة مفتوحة على مصارعها . . والحياة تتدفق . . وكأنها تتصارع . . وكأن الأيام تتمدد فى لحظات أبدية يصعب شرحها . .

وقال له نضال إنه يوما ما سيتم تقديرك بشكل أفضل . . هذا ما قاله بالضبط . . أمامك كل الوقت . . كل الوقت . . يحدث شىء ما ـ فقط ـ من وقت لآخر . . لكن بالنسبة لسائر الوقت فكل شىء معلق . . مثل الموت . .

معلق . .

وتندهش أنك حى . . تعيش . . لكنك تكاد لا تلحظ ذلك . .

هكذا حَدَّثه . . وإبراهيم كان يندهش أكثر فأكثر . .

من هذا الرجل .

نضال كان يستحق أن يعيش حياة أفضل . . فكر إبراهيم . . كان شخصا شديد الذكاء . . لكنه اضطر إلى الانقطاع عن الدراسة ليعمل . .

الحياة ليست سهلة . . قال له نضال . . لابد من التحمل بشكل أو بآخر . . أليس كذلك؟

لا بد من التحمل . .

هكذا انسابت الأيام . .

إبراهيم كان ينام عند رجل عجوز يؤجر غرفتين فى داره .

لكنه كان يمضى طوال النهار بالخارج . . مع نضال . .

كانا يثرثران أغلب الوقت . .

أو يبحثان عن أشغال صغيرة . . لتوفير بعض النقود .

كانا يعيشان يوما بيوم . . هكذا . . وفى وقت الحرب كان ذلك أفضل ما يمكن عمله .

ذات يوم . . كان إبراهيم ونضال يجلسان بالمقهى . . كانا يلعبان الشطرنج . .

حين سمعا أصواتا مكتومة تعلو نبراتها أكثر فأكثر . .

خرجا على الفور، ورأيا جماعة من الجنود تتجادل مع رجلين . . اشتدت نبرة الكلام عنفا . . وملامح الأعداء قسوة . . باختصار نشب عراك صغير . .

كان الجنود أربعة . . وبدوا جميعا واثقين بأنفسهم بشدة . . مختالين بزيهم العسكرى . . أقوياء بالسلطة التى تمنحها لهم أسلحتهم . .

لكن إبراهيم وجد حشد المواطنين أخطر بكثير . .

فى تلك اللحظة اقترب نضال وإبراهيم من قلب العراك، ووقفا يستمعان إلى تعالى الصيحات من الطرفين . . وسمعا أن هؤلاء الجنود جاءوا إلى مدخل المسجد للتحقق . . على الأقل هذا ما زعموه . .

هكذا . . للتحقق من أن كل شىء على ما يرام . . وبديهى أن تلك الحجة لم تكن مقنعة . . لكن ذلك لم يكن مهما . . لم يكن مهما وجود دافع لجنود إسرائيليين لدخول المسجد . . ولا أن يُقْدموا على ذلك بكل تبجح ووقاحة . . لم يكن مهما؛ لأنهم كانوا الأقوى . . الأقوى . . دائما . .

وهذا ما كان يدور فى ذهن إبراهيم، بينما نظرات عينيه تزداد قلقا . .

لأن هؤلاء المساكين يخسرون دائما . . هكذا كان يفكر . .

حتى ولو كان الحق معهم . .

حتى ولو كان الحق معهم . .

كما أن الجنود لم يكتفوا بالوقوف عند المدخل بل دخلوا المسجد بأحذيتهم العسكرية الضخمة . .

مخلفين وراءهم ، على بساط الصلاة الطاهر ، وحلا وغبارا . .

رافعين أصواتهم . . مقاطعين ومشوشين على المصلين . .

لأنهم كانوا لابد أن يتحكموا . .

هذا ما قالوه . . هكذا بالضبط . . أنهم لابد أن يفتشوا . .

ماذا؟ . . تساءل إبراهيم . . ماذا . . لكنه لم يقو على الكلام . . كان التوتر على أشده . . وكأنه يملأ نفوسهم . . قلوبهم . .

وكان سينفجر . . كان سينفجر . .

بشكل بشع . . كانوا يعلمون ذلك . . وكانوا كلهم خائفين . . خوفا فظيعا . .

فكر إبراهيم . . إنها الحرب . .

الحرب البائسة . .

فكر إبراهيم . .

ورأى ما كان يخشاه فى عينى واحد من الجنود . .

أكثرهم تكبرا . . أكثرهم غطرسة . .

كان هذا ما رآه فى هاتين العينين . .

رأى شيئا قد اشتعل . .

كقدر محتوم ومباغت . .

هكذا . .

عينا هذا الجندى كانتا تقولان . .

الآن، كفى . .

كفى . .

بدأ الناس يصرخون . . يقولون ارحلوا عنا . . اتركوا بلدنا . . وطننا . .

ارحلوا عنا . .

واتركونا لشأننا . .

لا تدخلوا مساجدنا . . ولا تفسدوا حياتنا . .

وانطلقت اللعنات . . البصاق . .

حتى الخوف، عند البعض . .

بينما تعاظم التوتر . .

وحدث ما حدث . .

فى لحظة . .

شاب . . بدا فى العشرين من عمره . . شاب يرتدى بنطلون «جينز» ممزق، وكوفية حول رقبته، ارتمى إلى الأمام . .

ربما، كان يأمل أن يصير بطلا . .

أن يصنع شيئا ملموسا . . حقيقيا لأجل بلده . .

لأجل شعبه . .

ارتمى إلى الأمام فى لمح البصر . .

مد يداه . .

أغلب الظن لضرب أحد الجنود . .

كانت لحظة تكاد لا ترى . . لم يَسمح الوقت لأحد بالتدخل . . بعمل أى شىء . .

ما عدا الجندى . .

أكثرهم غطرسة . .

الذى فى سرعة البرق، وبحركة تكاد تكون آلية . .

آلية . .

بحركة مَن اعتاد إشهار سلاحه .

أطلق النار . .

قَتَلَ . .

بحركة شبه آلية . . آلية . .

أطلق النار . .

تلك اللحظات بدت وكأنها تذوب فى لحظة واحدة :

قفزة الولد . . طلقة النار . . والجسد الذى سقط للخلف، بدَفْعة غير مرئية . .

سقط . .

وعويل امرأة، ذاك العويل الذى اخترق أذنى إبراهيم . .

كما لو كان يريد أن يثقبهما . .

وفى تلك اللحظة، فقد إبراهيم السمع . .

لم يدم ذلك إلا لحظة . .

لحظة . .

لكنها بدت وكأنها ساعات . .

ساعات رأى فيها الدم يُسفك . . والجسد يسقط بصوت مكتوم . . والناس تُسارع . . والجنود يتراجعون أقل غطرسة، هذه المرة . . أقل ثقة بالنفس، هذه المرة . . بالموت فى قلوبهم، هذه المرة . .

برائحة الموت العفنة تحيط بهم . .

تحيط بهم جميعا . .

وهذا المشهد . .

هذا المشهد . .

كم هو مرعب ببطئه ولا نهائيته . .

وفظيع، ولكَمْ . .

لكَمْ . .

لكَمْ هو حقيقى . .

هكذا بدا له ذلك المشهد . . أفظع ما أحزنه . .

لم يحزن مثل هذا الحزن منذ يوم مولده . .

أفظع ما أحزنه . . هذا الدم المسفوك، والجسد الساقط بصوت مكتوم، وهؤلاء الناس المسارعين، والجنود المتراجعين . .

أفظع ما أحزنه . .

عويل المرأة ، وملامح الرعب المرسومة على وجوه الناس ، وهذا العجز الجماعى . .

أفظع ما أحزنه . .

وهذه البلدة ، وهذا الخراب ، والموت القريب من الكل . . كل يوم . . صار الموت شيئا عاديا . . بكل ما فيه . . الموت المفاجئ . والموت غير المتوقع ، والموت القريب ، والموت الجائر ، والموت المباغت . .

أفظع ما أحزنه . .

وهذا العالم وهؤلاء الناس وبلدهم . . ووطنهم . . وتاريخهم . . وتاريخهم الحزين ومصيرهم . .

أفظع ما أحزنه . .

كل هذه الأفكار فى لحظة . . لحظة واحدة . . ليعود إلى هذا المشهد الواقعى الذى كان فيه . .

شاب ممدد على الأرض . . أو بالأحرى جسد شاب . . جسد أعزل . . والدم يسيل بغزارة . . والصراخ يزداد حدة . . والكراهية تطفح من عيون الناس . .

والألم الذى اجتاحهم فجأة ، ساعة أن . .

كانت لحظة . . كانت لحظة . .

لاحظ إبراهيم حركة قريبة والتفت مرة واحدة . . يترقب مأساة جديدة . . بقلب يعتصره الخوف . .

ورأى نضال يلتقط حجرا من الأرض . .

ويقذفه بقوة نحو الجندى الذى أطلق الرصاص . .

بقوة . .

بحركة تجسد كل الضغينة والسخط وكذلك قلة حيلة رجل . .

وشعب . .

وكان إبراهيم يذكر نفسه دائما بتلك النظرة . . يذكرها كل لحظة من حياته . .

بينما نضال يلتقط الحجر ويقذفه

وعضلاته المشدودة بفعل الحركة . .

ومغزى تلك الحركة . .

انطبع كل ذلك فى نفس إبراهيم . .

وعرف فى تلك اللحظة أن الكوابيس ستلاحقه مدى الحياة . .

ستلاحقه بلا رحمة . .

وستميته . . تميته . .

تميته من داخله . .

حدث كل شىء ببطء شديد . . بدت الحركات البطيئة الدقيقة وكأنها مبرمجة . .

إحساس بشع بأن كل ما حدث كان مقررا حدوثه من قبل . . لم يكن بيده شىء . .

لم يكن بيدهم جميعهم شيء . .

ليقفوا دون موت هذا الفتى . . دون أن يُطلِق ذاك الجندى النار . .

دون حدوث أى من ذلك . .

صَوَّب نضال الحجر والتفت الجندى فى لمح البصر لتلافيه بسرعة عجيبة . . بينما سقط الحجر دون أن يصيبه . . ورفع جنديان بندقيتيهما نحو السماء الصافية وأطلقا النار . . تراجع الناس بذعر . . الكل يبحث عن ملاذ خلف سيارة . . خلف أى شيء يمكن الاحتماء به . . ثم خرجت امرأة حاسرة الرأس وارتمت على ابنها . . على الجسد الأعزل الممدد على الأرض . . باكية . . صارخة . . ناحبة . . ولدى . . ولدى!

وساعة أن رآها الجنود ترتمى إلى الأمام أطلقوا النار . . الأربعة، كلهم . .

الأربعة، كلهم . .

أطلقوا النار وأصيبت المرأة فى أربعة مواضع مختلفة . . بالكتف اليُسرى . . بالساق اليُمنى . . بالصدر . . وبالرقبة . .

انهارت على الأرض وتدفق الدم غزيراً، وعند هذه النقطة . . ما من شيء كان يمكن عمله لتغيير ما حدث . . كان قدرا محتوما . .

كانت الآلة قد دارت . .

آلة الحرب . .

هنا أيضا . .

فجأة ظهرت شجاعة من مكان ما فى قلب كل واحد . . شجاعة قصوى .

وها هى الأيدى . . والأذرع . . وها هم جميعا .

يأخذون فى أيديهم حصى . . حجارة .

وفى هنيهة . . انفجر صراخ . . انطلقت قذائف . . اندفع الجميع . .

سمع إبراهيم نفسه يصرخ .

كما سمع نفسه من قبل يصرخ عندما رأى جثة والده .

كره إبراهيم هذا الصراخ الذى يخرج من أعماق ذاته المظلمة ويزلزل كيانه . .

كره هذا الصراخ .

لأنه لم يكن صراخ رجل .

ولا حتى مقاتل . . محارب . . قوى .

كان صراخ من قِبَل الحرب . .

لأنه حتى تلك اللحظة كان قد رأى أهوالا جمة .

لأنه عرف أنه لن ينجح أبدا فى التعايش أكثر من ذلك مع الحرب . .

التى صارت الآن جزءا من حياته .

إبراهيم شاهد الحرب منذ يوم مولده .

وسيشهدها حتى الممات.

مات جنديان من الأربعة.. رجما بوحشية.. على حسب قول رابين ووفقا لما كُتب بالصحف اليومية.. لكن الغريب ـ فى المقابل.. الغريب..

أنه لم يُكْتَب شىء عن الولد المقتول..

وأمه المقتولة..

كل ما قيل هو أن الجنود لم يبدءوا العراك، وعندما شرعوا فيه كان ذلك دفاعا شرعيا..

لم يعد إبراهيم يهتم بذلك..

لأنه كان قد تعود على أكاذيب الصحف والأعداء..

ما قلب كيانه.. إبراهيم.. هو أنه كان يَعرف أن نضالا دفع الآخرين لرمى الحجارة..

إن نضالا حرَّض على كل ذلك..

لذلك تساءل إبراهيم إذا ما كان هو أيضا مسئول بشكل ما..

لأنه هو الذى أقنع نضالا أن القتال والعنف هما السلاحان الوحيدان الباقيان ضد الإسرائيليين..

هو الذى قال لنضال إن الحوار أضحى مستحيلا.

إن اتفاقيات السلام لم تعد سوى سراب..

أيعنى ذلك أنه صار سفاحا؟

إبراهيم، أنت سفاح! اسأل نفسك.. تبا لك.. اسأل نفسك.. أنت سفاح! أنت سفاح!

هل كان أبوه سيفخر به؟ أم كان سيصاب بخيبة أمل؟

واقعة رمي الحجارة جمدت قوة وعقل كل واحد منهم.. بدت البلدة في حالة من التبلد العجيب.. الناس لا تخرج من بيوتها ولا يُسمع لها صوت..

لازَم إبراهيم الفراش أياما طويلة.. دون أن يرى أحدا.. رفض رؤية نضال حوالي أسبوع.. وفي أحد الأيام طرق صاحب البيت العجوز بقوة على الباب وفتح له إبراهيم.

خَلْف الرجل العجوز وقف نضال الذي هم بالدخول شاكرا الرجل.. ثم أغلق نضال الباب خلفه ووقف ساكنا أمام إبراهيم..

ثم بدأ يكلمه ويطلب منه أن يتمالك نفسه.. يتمالك نفسه.. لأن الحياة..

ـ لأن الحياة يجب أن تستمر.. أتفهم يا إبراهيم؟ لا يمكنك أن تترك نفسك هكذا! أنا أيضا لم أكن أريد قتلهم.. أتفهم.. كانوا رجالا.. وقتلتهم.. لكن يا إبراهيم.. هم قتلوا رجالنا.. أرأيت كيف أسقطوا ذلك الفتى.. أرأيت؟ مثل الكلب.. مثل كلب بائس.. والمرأة.. أرأيت؟ أرأيت كيف قتلوا أمه؟ تخيل لو كانت تلك أمك يا إبراهيم.. أمك.. وأن هؤلاء الأنذال قتلوها هكذا..

تبـا لك يا إبـراهيم . . أفق . . أفق! يريدون أن يقـتلونا جـمـيـعـا . . جميعا . . عن آخرنا!

ـ نضـال . . نضـال . . نضـال . . آه، يا إلهى . . نضـال . . كل هذا الدم . . هذا الدم . وكم صـرخـوا قـبل أن يمـوتوا! يا إلهى . . نضـال . . مـاذا أفـعل حـتى أنام بالليل؟ لقـد قـتلناهم . . نحن . . نضال . .

ـ إبراهيم . . أرجـوك . . اسـمـعنى : هذه أرضنا . هذا وطننا . هذا واجبنا المقدس . . أتفهم . . يجب علينا . . لا يسعنا التصرف بشكل آخر . . يجب أن نقـاتل . . ننقـذ أبناءنا ونسـعى لمنحـهم مـسـتقـبـلا أفضل . . بلا جنود صـعـاليك يعيشـون فسـادا فى المدن . . يُدنسـون الجوامـع . . ويُلوحـون بأسـلحـتـهم . . القـرآن الكـريم يقـول ذلك يا إبراهيم . . فلو لـم نفعله لاقترفنا ذنبا . . الله يقـول قـاتلوا من أجل أرضكـم! وأنا سأقـاتل يا إبراهيم . . حتى لو كلفنى ذلك حيـاتى . . لا أريد أن أحـيا طويلا أو أن أبلغ المائة من عـمـرى دون أن أتمكن من القول بأننى قد أديت واجبى كمـسلم . . إبراهيم . . تفـهم ذلك . . أليس كذلك؟ تحتم علىّ رمى تلك الحجارة . . تحتم علىّ!

ـ نضـال . . لا . . اتركنى فى حـالى . . اتركنى فى حـالى . . اذهب . . اذهـب . . اذهب . . نضـال . . أرجـوك . . اتركنى وحـدى . . أرجـوك . . أرجـوك . . وحـدى . . أريد أن أكـون وحـدى . . أرجوك . . أرجوك .

ـ اسمعنى الآن جيدا! كن شجـاعـا، يا إبراهيم! كن رجـلا! علينا أن نهزمهـم بفضـل قـوة تحملنا! علينا أن نهزمـهم بشجاعتنا! ببسـالتنا!

لا بالشفقة والتسامح أو الضعف! أتفهمنى؟ إبراهيم، أتفهمنى؟ رُدَّ علىّ أرجوك. . قُل لى إنك معى! قل لى إنك معى. . إننا سنقاتل. . وسنجعل العالم يَسْمعنا حتى آخر نفس. . حتى تخبو كل قوة فى أجسادنا ولا يمكننا أن نخدم وطننا! إبراهيم. . قل لى إنك معى. . تبا لك. . إبراهيم. . افتح عينيك. . افتحهما يا إبراهيم!

ـ لا. . لا. . أنا. . آه، يا إلهى. . يا إلهى. . نضال. ليرحمنا الله. . ليرحمنا الله. . لقد قتلناهم. . وهذا الولد. . وتلك المرأة. وكل هذا الدم. . نضال. . يا إلهى. . نضال. .

ـ إبراهيم. . اهدأ. . اهدأ! أعْرف ذلك. . أعرف أنك لم تعد قادرا. . أفهمك. . أنا أيضا لا أقوى على مواجهة الموت. . إبراهيم. . أنا أيضا لست قادرا. . لكن لابد أن نقاوم! إبراهيم هؤلاء السفلة يقتلوننا كل يوم. . أبناءنا. . نساءنا. . أمهاتنا. . آباءنا! إبراهيم. . لا يسعك أن تتركنى وحدى! هذه معركتنا!

ـ نضال. . تبا لك. . نضال. . أنا. . أنا لا أعرف. . نضال. . لست قويا. . لست قويا. . لست قويا. . لست قويا مثلك. . لست قويا. .

ـ بلى! بلى، بالعكس! أنت قوى. . قوى جدا. . أنا متأكد من ذلك. . أنت أقوى منى! أقوى منى! أفهمت؟ أفهمت؟. . أفهمت؟ أجبنى؟

ـ أنا. . أنا. . أنا. . نـ. . نعم، يا نضال. . فهمت. . أنا قـ. . قوى. . قوى. . أنا قوى. . قوى مثلك. . سنقهرهم. . نضال. . أنا. . أنا. . قوى.

ـ عظيم، يا إبراهيم . . عظيم . . كنت أعرف أنك ستفهم . . نحن الأفضل . . أنا أعرف . . نحن الأفضل . . سنقهرهم . . سنكرس حياتنا لهذه الحرب . . وسنقهرهم . . أليس كذلك؟ أفهمت؟

ـ نـ . . نعم، يا نضال . فهمت .

ـ قل لى إنك لن تتخلى عنى أبدا . . وأنك ستتبعنى دائما . . فى كل ما سأفعل . . وستقاتل معى . . وسنناضل حتى الموت . . قل لى هذا يا إبراهيم . . عدنى بذلك!

ـ نعم يا نضال . . نعم . . أنا . . أعـ . . أعدك أننى لن أتخلى عنك . أبدا . . سأتبعك . . سأتبعك دائما . . وسأقاتل معك . . و . .

ـ عدنى بذلك . . عدنى بذلك، يا إبراهيم!

ـ و . . و . . سنناضل . . سنناضل حتى الموت .

مَرَّ عامان . كان إبراهيم ونضال يقضيان كل وقتهما معا . . وتوطدت صداقتهما .

فى ذلك العام، ١٩٩٥، حدث تحول خطير فى حياة نضال كان له أيضا تأثير فى حياة إبراهيم .

ذات يوم وصل حوالى ثلاثون لاجئا فلسطينيا إلى البلدة، فقد كان لزاما عليهم أن يهجروا بيوتهم، لأن الإسرائيليين قرروا أن بلدتهم كانت مقرا لجماعة إرهابية، وهكذا هُدمت بيوتهم، وصارت بلدتهم قاعدة إسرائيلية .

لم يكن لهؤلاء اللاجئين مكانا يذهبون إليه، وما شَهِدوه من تضامن الناس معهم كان أمرا جديرا بالملاحظة . .

جديرا بالملاحظة ؛ لأنه ما من أحد رفض استضافة أسرة منهم فى بيته . . بل أكثر من ذلك . . كان الجميع على استعداد لمشاركة آلام هؤلاء الناس الأسوأ حظا منهم فى محنتهم .

واستضاف نضال أخوين عنده . . ولدا وبنتا . . جهاد وريهام .

كان جهاد متوسط القامة . . شعره فاتح وعيناه رماديتان . . دائم الابتسام . . شديد المرح . . كثير الضحك .

كان فتى خفيف الظل اجتماعيا ، ونجح فى أن يُنسى إبراهيم ونضال ـ قليلا ـ الحرب . . لم يُبْد عليه التأثر بالحرب ـ على نقيضهما . . لم يبد عليه التزعزع أو عدم الثقة . . وفى نظراته ، لم يكن هناك ألم . .

قال إبراهيم فى نفسه أن هناك احتمالين . .

إما أنه لم ير بعد أهوال الحرب . . الموت . . الدمار . . الكراهية . .

وإما أنه رجل ذو مقدرة هائلة على المقاومة . . وواحد من هؤلاء الأشخاص القادرين على النظر إلى الجانب الإيجابى للأشياء . .

لأنه كان يرى أنه ما من شىء يضيع إذا ما احتفظنا بالقدرة على الابتسام . .

وتلك القوة يجب أن نجدها دائما . . ومَن يتمكن من ذلك يصر أقوى مِمن يقاتلون . .

فهم على العكس يعيشون حياة ملؤها الحقد والضغينة . .

فماذا تظنه يكون رد فعل الأعداء إذا ما رأوا أنه رغم كل آلام . . خسائر . . أهوال الحرب . . ماذا تظنه رد فعلهم إذا ما رأوا أنه برغم كل ذلك ما زلنا نحتفظ بالقدرة والشجاعة على الضحك؟

الضحك هو القوة . . لا الضعف . .

والسعادة هى طوق النجاة لنا . .

هذا ما كان يردده جهاد دائما . .

كان شابا متفائلا بشوشا ، وكان لديه الكثير ليعلمه لإبراهيم ونضال . .

حتى وإن لم يتجاوز التاسعة عشرة . .

أما ريهام فكانت فى الواحدة والعشرين من عمرها . . كانت لها نفس عينى أخيها الرماديتين ولها نفس النظرة العميقة . . قوام ممشوق . . شعر طويل جميل . . لها ابتسامة رائعة الجمال ، ترسم غمازتين على خديها . .

لم تكن بسمتها شبيهة ببسمة جهاد البهيجة . . ربما لأنها كانت أكبر منه . . أنضج منه . . ربما لأنها كانت أكثر إدراكا لواقع الحرب . .

على أية حال ، كانت هى أيضا فتاة تلقائية . . بسيطة واجتماعية . .

كانت تهتم بأخيها بحنان جم وبإحساس عال بالمسئولية يفوق سنها . .

أحيانا كان إبراهيم يشعر بالأسف لها ، حين يراها هكذا . . شديدة

التعلق بأخيها . . شديدة القلق والانشغال عليه حتى وإن أمكن تفسير السبب وراء هذا الارتباط العميق . .

فحين يضيع منك كل شيء . . بيتك . . عملك . . عائلتك . .

حياتك الطبيعية . .

فليس غريبا بعد ذلك ، أن تتشبث بالإنسان الوحيد الذى بقى لك كما تتشبث بطوق النجاة . .

تغمره بالحب . .

بكل الحب الذى وددت لو أنك قادر أن تمنحه لكل الأشخاص الذين لم يعد لهم وجود الآن . .

أسرة جهاد وريهام . . والديهما وأخويهما التوءمين ، اللذين لم يبلغ عمرهما الأربعة أشهر واللذين أبيدا وهما بعد صغيران . .

فى ذلك اليوم دخلت الدبابات بلدتهم ، وأطلق الجنود النار على كل الأشخاص الذين وجدوهم . . نساء . . شيوخا . . أطفالا . .

دخلوا كل البيوت . . وأشعلوا النيران فى بعضها ، بينما أصحابها لا يزالون بالداخل .

فى البعض الآخر اغتصبوا النساء . . سرقوا المال . . ودمروا كل شيء . .

ضربوا الشيوخ . .

وحطموا عظام الأطفال . . دون أن يقتلوهم . . حتى يعانى الناس طويلا بأطفالهم المعاقين . .

يُمثلون عبئا على أسرهم . .

فينتهى الأمر بأن يكره الناس هؤلاء الأولاد . . الصغار . . الذين لن يقووا يوما ما حتى على الدفاع عن أهاليهم فى الانتفاضة . .

الذين لن يقووا يوما ما على القتال كرجال . .

حَطموا عظام الأطفال . . ودمروا كل شىء . .

ولما بدأ الأولاد والرجال فى التدخل . .

تراجع الآخرون . . ولم يتمكنوا من مهاجمة الحضانات والمدارس . .

لأنهم كانوا ليفعلوا ذلك . .

كانوا ليفعلوه . .

لو كانوا يقدرون .

ريهام وجهاد كانا بالمدرسة . .

ولما سُمعت الرصاصات الأولى . .

انفجر الأطفال كلهم فى الصراخ . .

وصرخت المدرسات تحثهم على الاحتماء تحت الأدراج . .

انبطح الجميع على الأرض . . صارخين . . مذعورين . .

والخوف يعتصرهم . .

أصيب أطفال كثيرون بالإغماء من شدة الرعب . .

وانفجر آخرون فى البكاء . .

كانت ريهام ترتعش . . جاحظة العينين . . لكن ليس بسبب طلقات الرصاص . .

بل بسبب أخيها . .

كانت تتساءل إن كان أخوها فى فصله . .

فى مأمن . .

بعيدا عنها . . بعيدا . .

فى الوقت الذى كانت أمها تنبهها كل يوم . . قبل أن تتركها تذهب إلى المدرسة . . أن تعتنى بأخيها . .

أن تحافظ عليه . .

أن تظل بجانبه مهما حدث . .

لم تكن ريهام قادرة على نزع تلك الوصايا من رأسها . .

وشعرت أنها أخت سيئة ، لأنها لم تقم بواجبها نحوه . .

وبعد حوالى ساعتين من الفوضى والخوف . . بدأت المدرسات فى الخروج من الفصول . . من المدرسة . . ولم يدر الأطفال ماذا يفعلون . .

قرر بعض الأطفال الخروج والعودة لبيوتهم . .

وهؤلاء البؤساء . . هم الذين وجدهم الجنود وضربوهم . .

ونظرا لأن الوقت لم يسعهم لضرب الأطفال حتى يسيلوا دما . .

اكتفوا فى بعض الحالات بكسر معاصمهم ليمنعوهم عن رمى الحجارة . .

مدى الحياة . .

ليمنعوهم عن الدفاع عن أنفسهم ضد أعدائهم .

ريهام وإنجى ـ أخت نضال ـ أصبحتا صديقتين فى وقت قليل .

كانتا فى نفس العمر تقريبا . . تقضيان أغلب النهار فى الثرثرة بالمطبخ . .

فى الوقت الذى كان فيه إبراهيم ونضال وجهاد يقضون كل وقتهم خارج البيت . . فى المقهى أو الطرقات . . . فى المساجد . . وسط جماعات للشباب تتعاون لتكوين مجموعات صغيرة . .

للدفاع عن أهالى البلدة . .

كانت الأيام تمر بطيئة بلا نهاية . .

والحياة تستمر . .

حتى مع الألم والغضب . .

كانت تستمر . .

لاحظ إبراهيم أن نضال شديد الاهتمام بريهام . . كانا يمضيان الكثير من الوقت سويا . . يتحادثان . . يتباسمان . . كانا على درجة خاصة جدا من التفاهم والشراكة . .

عينا نضال كانتا تلمعان عند ظهور ريهام . . وعندما تكون غائبة . .

كان يتكلم عنها طوال الوقت . .

ذات ليلة حلم نضال بكابوس . .

رأى صراخ وبصاق الناس . .

ضد الجنود . .

ثم بدأ الناس فى رمى الحصى . . قذف الحجارة . .

استمروا حتى مع تَصلب عضلاتهم، ووجع أذرعهم، ووهن أجسادهم . .

استمروا بلا هوادة . .

لكن ما كان يدعو للعجب، أنهم كلما رموا حجارة . .

كلما زاد عدد الجنود . .

واحدا تلو الآخر . .

حتى يظن المرء أنهم سيتزايدون إلى ما لا نهاية . .

كانوا جميعا بزيهم العسكرى النظيف المهندم . . والرشاشات فى أيديهم . .

والنظرة المتوعدة فى أعينهم . .

ساعتها أدرك نضال أن الحل الوحيد لوقف تَضاعُفهم المستمر . .

هو التوقف عن رشق الحجارة . .

تَرَكَ الحجر يسقط من يده . .

وهرول نحو أبناء شعبه . . صارخا . . متوسلا أن يتوقفوا . .

لكن بلا جدوى . . بلا جدوى . .

استمروا . . كما لو أنهم صم وعمى . .

كما لو كانوا آلات . .

نضال أخذ يصرخ ويبكى من القهر . . بحث عن إبراهيم . .

لكنه لم يجده . .

لم يجده . .

ولما وجده، كان صراخه عميقا يشق السماء . .

إبراهيم كان يرقد على الأرض، ملطخ الوجه بالدماء . . كان . .

صريعا .

استيقظ نضال مفزوعا . . يضرب بيده فى الهواء لاهثا . .

ظل متصلبا حتى عاد تنفسه منتظما . .

ثم نفض الغطاء عنه وترك الفراش . .

ذهب إلى الحمام ليغسل وجهه بالماء ونظر إلى نفسه فى المرآة . .

كان وجهه مشدودا . . هالات سوداء تحت عينيه . . بشرته شاحبة . .

بدا ضعيفا ومريضا . .

تساءل . . ما الذى جعلنى فى هذه الحالة؟

ألم أكن دائما فيما مضى هادئا أعيش فى سلام؟

أين ذهب نضال الذى أعرفه؟

أجابه صوت داخلى خافت . . صوت ملح . . كأنه ضجيج مزعج . .

لأنه كان يعرف الإجابة . .

لكنها لم تكن الإجابة التى يريدها نضال . . لذا كتمها بداخله . .

وخرج من الحمام . .

فى تلك اللحظة شعر وكأنه يختنق . .

فتناول سيجارة وخرج . .

تلك الليلة لم يكن فى السماء إلا القمر . .

النجوم غطتها سحب ثقيلة . .

كان الهواء باردا، ولم يكن هناك صوت . .

سكون وسلام . .

رأى نضال خيالا من بعيد يقترب منه أكثر فأكثر . .

نزل درجات السلم، وذهب للقاء الشخص القادم نحوه، الذى بدا له شكل امرأة . .

ولما أضاء نور القمر وجهها . .

اكتشف أنها ريهام . .

كانت ترتدى بلوفر وبنطلونا واسعا من الكتان . . كانت تعقد يداها على صدرها وكان شعرها أشعث . .

لم يرها نضال جميلة هكذا من قبل . .

تكلم إليها قبل أن ينظر فى وجهها . . قبل أن يرى عينيها . .

ـ ريهام . . ماذا تفعلين هنا؟

ـ لم أستطع النوم يا نضال . . يحدث لى هذا أحيانا .

ـ أنا أيضا . . تعرفين . . حلمت بكابوس فظيع . . وشعرت كأننى أختنق . . كان لابد أن أخرج قليلا لآخذ نفحة من الهواء .

ـ بل نفحة من النيكوتين . . أليس كذلك؟ !

ـ حسنا . . لقد اضطربت من الكابوس . . أحتاج إلى التدخين لأريح أعصابى . أتعرفين . . التدخين يساعدنى على الاسترخاء . . أعلم أنه مضر ، لكن على أية حال فإنى أدخن منذ الثالثة عشرة . لكن . . لكن أكنت تبكين؟

ـ لا . إنى . . لا . لم أبك . . أظن أن هناك شيئا دخل فى عينى . . لكن لا يهمك . . الأمر بسيط ، أؤكد لك . أرأيت كم أن القمر جميل الليلة؟ ! خسارة أنه ليس هناك نجوم . أحب النجوم كثيراً .

ـ ريهام من فضلك ، قولى الحقيقة . أنت لا تثقين بى ، أليس كذلك؟ بلى . . بلى . . لا تثقين بى . لكن لماذا؟ أنا . . أنا . . أنا أعتقد . . حسنا . . أن . . فى الواقع أن . . أننى . . أعتقد أننى أحبك . .

ـ لم أبك يا نضال . . أؤكد لك . . لا تقلق . . الأمر ليس مهما . . أنا . .

ـ ريهام. . ريهام. . أراك وحيدة. . وحيدة جدا. كل. . كل مرة أنظر فيها إليك يكبر بداخلى هذا الاحتياج بأن أحميكى. . لا أدرى لماذا. . لكن. . حسنا. . مجرد رؤيتك تبكين تجعلنى أعانى. . ويسبب لقلبى عذابا لا يمكن التعبير عنه. . أريد أن تكونى سعيدة يا ريهام. . أ. . أرجوكى لا تبك. . آه. . تبا لى. . ماذا قلت؟ هل أخطأت؟ لا. . ريهام. . لا تبك. . أرجوكى. . آه. . يا إلهى. . أنا. . أنا لا أريدك أن تتألمى. ريهام. . أرجوكى. . ريهام. . انظرى فى وجهى. . هيا. . ارفعى هاتين العينين الرائعتين. . انظرى لى. . انظرى فى وجهى. . لا أريدك أن تتألمى. . لماذا تبكين؟ أرجوك يا ريهام. لماذا تبكين؟

ـ آه يا نضال. . نضال. . يا إلهى. . نضال. . أنا. . أنا لاأبك. . لا. . لا. .

ـ ريهام. . لماذا لا تقولين ما بك؟ ما الذى يشغل قلبك؟ لماذا لاتفضفضين عن نفسك معى؟ ألا تثقين بى؟

ـ لا يا نضال. . أثق بك. . أنت. . أنت. . حين تتحدث معى أشعر بك قريبا منى. . قريبا جدا و. . آه يا نضال. . أبكى لأننى خائفة على جهاد. خائفة أن تخطفه منى الحرب. . إنه الآن كل ما بقى لى. . لم يعد لى أهل منذ كنت فى الثامنة. . هو كل أهلى. . لاأحتمل فكرة فقدانه. . لا أحتملها. . هو كل حياتى. . قد يبدو لك هذا سخيفا. . لكن حين كنت أذهب إلى المدرسة وأنا بعد صغيرة. . كانت أمى توصينى دائما به. . أن أحميه. . ألا أتركه أبدا وحده. . والآن. . أرى أمى تقول لى الشيء نفسه. . حتى الآن. . حتى الآن. . وتوصينى به وبالسهر على سلامته. نضال لو حدث له

مكروه لن أموت ألما فحسب بل سأنكث بعهدى الذى قطعته لأمى . . لا أكبره إلا بعامين لكننى أراه طفلا . . لطالما اعتبرته هكذا . . أنت أيضا تعتبره طفلا يا نضال . هذا الحماس الذى يكنه للحياة . . تلك السذاجة . . إنه لا يبلغ إلا التاسعة عشرة من عمره . . أخاف أن أفقده . .

ـ آه يا ريهام . . أنا . . يا إلهى . . كم أفهم ما تعنيه . . أنا الرجل الوحيد الباقى . . أبى رحل إلى سوريا منذ سنوات وأمى وأختى تعتمدان علىّ كليا . أشعر بمسئولية كبيرة نحوهما . . لكنى أخاف بشدة أن أفقدهما . .

ـ هذه الحرب هى مصيبتنا . . لاحقت آباءنا وعذبتهم وهى الآن تلاحقنا . . وستلاحق أبناءنا . . ألا يوجد سبيل لوقف ذلك العنف؟ يا ربى . . ألا يوجد طريقة لوقف هؤلاء الصهاينة الظالمين؟ إنهم يقتلوننا جميعا . . لماذا؟ لماذا لا يفعل سائر العالم شيئا؟ لماذا لا تتحرك الدول الأخرى؟ لو حاولوا فقط وقف تلك المجزرة . . لو . . لماذا لا يساعدونا؟ لماذا يأخذون موقف المتفرجين يا نضال؟

ـ لأنهم هم أيضا قتلتنا يا ريهام . . مثلهم مثل الإسرائيليين . نحن وحدنا فى تلك المعركة . . فى هذه الحرب . . نحن شعب بلاسلام . . لكننا سنحظى بسلامنا بالقرب من الله . . من يقفون اليوم موقف المتفرجين لن يعرفوا الراحة يوم الحساب . . إنه العزاء الوحيد الذى أجده لنفسى . . الله معنا .

ـ نضال . . أراك رجلا عظيما . . أقَدِّرك كثيرا يا نضال . . شكرا لك .

ـ أنا . . هذا لأجلك يا ريهام . . أنا أحبك .

ـ أنا أيضا يا نضال . . أنا أيضا .

مر عام هادئ بلا أحداث تعكر صفو البلدة نسبيا . .

وفى ذلك العام تأصلت أواصر العلاقة بين نضال وإبراهيم وريهام وجهاد . .

أصبحوا كالإخوة . . كان كل منهم يبوح بنفسه للآخر دون حرج . .

ذات يوم . . بينما الرجال يتحدثون فى الصالون والنساء بالمطبخ لتجهيز الطعام . . سمعوا انفجارات وصراخا . .

وثب إبراهيم خارجا مع نضال . . ورأيا الناس يجرون صارخين . .

مذعورين دون أن يعرفوا إلى أين يذهبون . .

حاول إبراهيم أن يستوقف فتى يعرفه جيدا ، ولكن الفتى استمر فى العدو . .

جرى نضال نحو الشارع الرئيسى ، وفهم سبب كل ذلك الرعب . .

وصلت الدبابات . .

كانت الدبابات علامة الاحتلال . .

والاحتلال كان يعنى الموت . . العذاب . .

كان يعنى كثيرا من القتلى، وقليلا من الناجين . .

رأى إبراهيم طفلة صغيرة فى حضن امرأة . . عيناها جاحظتان . . مستمرة فى الصراخ . .

بكل نفس فى صدرها . .

كانت تصرخ . .

تصرخ . .

كان صراخا حادا . . يمزق قلبه . . ورأى هذا التعبير الذى يقطر فزعا . .

شعر بالألم . .

حتى أنه وقف متجمدا، إلى أن هزه نضال بعنف، وانطلق يجرى نحو البيت . .

تبعه إبراهيم . . وفى غضون لحظة حَلَّت الفوضى . .

قالا للآخرين أن يجروا خارج البيت بسرعة . . لأن الدبابات فى الطريق . .

والدة نضال ـ كما لو كانت لا تدرك خطورة الوضع ـ أخذت تكدس الطعام فى كيس . .

اضطر ابنها أن ينتزعه من يدها وأمرها بالخروج فورا . .

بعد قليل، كان جهاد وريهام وإبراهيم ونضال وإنجى ووالدتها يركضون مع الآخرين . .

ومثلهم . . لا يعرفون إلى أين يتوجهون . .

كان المهم أن يجروا وحسب . .

للعثور على مكان يحتمون فيه . .

لما سمعوا صوت انفجارات خلفهم، فهموا أن الإسرائيليين بدءوا قصف البيوت . . انحدرت دمعة على خد والدة نضال . . التى لم تعد تقوى على الجرى . .

توقفت . .

نضال وإنجى صاحا بها لتسرع . . لتجرى . . لكنها لم تعد قادرة . .

فى ذلك الوقت أوشك جندى مستل سلاحه على اللحاق بهم . . لم يبد عليه لحظتها النية فى قتلهم . .

توسلا إليها . . توسلا أن تتحرك . .

لكنها قالت إن تلك أرضها . . وذلك بيتها . . فيه ولدت . .

وفيه ستموت . .

التفتت إلى الجندى . . صرخت فيه أنهم ليسوا إلا سفاحين . . أنهم دمروا حياة شعب بأكمله . . أنهم ظالمون . . أن الأجدر بهم أن يتركوهم فى سلام . . أن يتركوهم يعيشون فى البيوت القليلة التى بقيت لهم . .

ثم ارتكبت حماقة . . صرخت فيه . . أمك . . أين هى الآن؟! أيروق لك أن أرسل ابنى خلفها حاملا رشاشا فى يده؟ أيروق لك أن

يطردها ابنى من بيتها وأن يهددها؟! الصراخ . . وعند ذلك صَوَّب الجندى سلاحه نحوها . . وفى لحظة خاطفة لم يكد يدركها أحد . . أطلق الرصاص . .

سقطت أم نضال على الأرض . . وصرخ نضال . . ذاك الصراخ الوحشى . . أرهب الجميع . .

ربما أكثر من صوت الرشاش . .

ارتمت إنجى على الأرض صارخة . . تحاول إنقاذ أمها . . قفز نضال على الجندى ونجح فى طرح سلاحه بعيدا . . إبراهيم وجهاد ساعداه فى ضرب الجندى . . الذى سقط أرضا . . متأثرا بضربات الأرجل والأيدى والأظافر . .

قبل أن يدركوا أنهم على وشك قتل الجندى . .

رأوا زملاءه يجرون نحوهم . .

ففروا هاربين . .

لكن إنجى لم ترِد ترك جسد أمها . .

قال لها جهاد . . لقد ماتت . . ماتت . .

قالت لها ريهام . . لم يعد بيدنا شىء . .

وأخذ نضال يحضها . . إجر . . إنجى . . تعال . . إجر . . وهو يسحبها من ذراعها . .

لكنها أخذت تصرخ . . تصرخ . . كانت تائهة ، ولا تفهم أن بقاءها يعنى موتها . .

أطلق جنديان الرصاص . . وأصابا . .

أصابت طلقة إنجى . . والأخرى نضال . .

اندفع إبراهيم صارخا نحو نضال ، وحمله على كتفه . .

أما جهاد فرفع إنجى . .

وعادا للجرى ومعهم ريهام التى كانت تجر رجلها . . منهكة . . ضائعة . . لاهثة . . متماسكة تارة . . وعلى حافة الجنون تارات . .

تصرخ برعب حقيقى . .

فجاعة الموقف طغت عليهم جميعا . .

لم تترك لهم مهربا . .

كانوا مُرَوَّعين . .

مُروعين . .

تتدافع الطلقات من حولهم . . تكاد تمسهم . . تخطئهم ببضع سنتيمترات . . ورأوا الموت وجها لوجه . . بدا لهم أنه لن تكتب لهم النجاة . .

لن تكتب لهم النجاة . .

بل الموت . .

الموت . .

فظيع وبلا رحمة . .

وكانوا خائفين منه . .

خائفين منه . .

وكانوا يعرفون أنهم لا يزالون بعد شبابا . .

شبابا ـ لسوء حظهم ـ مروعين . .

كانوا يعرفون أن لهم الحق فى الحياة . .

وقد يبدو ذلك سخيفا ، لكن إبراهيم كان يفكر . .

بينما كان يجرى مترنحا وقدماه تؤلمانه . .

بينما جسد نضال يتثاقل ويتعسر حمله . .

فكَّر أن هذا ظلم . .

أنه لايزال صغيرا على الموت . .

كان أمامه الكثير من الأشياء ليفعلها . .

الكثير من الناس ليقابلها . .

كان يجب أن يصير رجلا . .

كما أرادت أمه . . لم يكن يريد أن يموت . .

ليس بعد . .

أولا كان عليه أن يصير رجلا مثل والده . . لم يكن من العدل ألا يُمنح فرصة المحاولة . .

لم يكن من العدل . .

ولم يكن من العدل أن يلاحقهم هؤلاء الجنود ليقتلوهم . .

يقتلوهم . .

لماذا . . اللعنة . . لماذا؟

ماذا فعلوا لهؤلاء الجنود؟

وبينما كان يفكر . . كان من غير المعقول أن يجد سبيلا للتفكير فى موقف كهذا . .

غير معقول . .

لا شك أنها كانت وسيلة للهرب من الاختناق خوفا . .

بينما كان يفكر برزت وسيلة النجاة أمامه . .

شاحنة مكدسة بالناس . . كانت تهم بالرحيل . . اللعنة . .

كان لابد أن يلحقوا بها . .

أخذوا يصرخون . .

انتظرونا . .

انتظرونا . .

لكن الجنود كانوا خلفهم . .

وفضل السائق عدم المخاطرة بتعريض الشاحنة للقصف . .

فأدار العربة بيدين مرتعشتين . . وانطلق مسرعا . .

الجنود كانوا يقتربون . . كان يجب أن يتصرف بسرعة . .

حتى ولو كان قلبه يدمى . .

يدمى . .

لأنه تخلى عن هؤلاء الشباب المستنجدين الصارخين . .

الصارخين لينتظرهم . .

لكنه لم يكن قادرا على المجازفة بحياته، وحياة الذين تقلهم الشاحنة . .

رحل . .

رحل .

فكر إبراهيم للحظة أن يرتمى على الأرض . .

رأى نفسه يرتمى على الأرض . .

الآن انتهى كل شىء . .

انتهى . .

كان الموت يتربص بهم أيضا . .

لكن . .

لكن فى اللحظة التى استسلم فيها للموت . .

توقفت أمامه صورة كالسراب . . كانت شاحنة أخرى . .

كانت آخر شاحنة تحمل الناس خارج البلدة . .

توقف الجنود عن إطلاق الرصاص على الشباب، وصوبوا نحو الشاحنة . .

كان ذلك جنونا، لكن السائق لم يرحل، بل برز من النافذة يهتف . .

هيا يا أولاد . . أسرعوا! أسرعوا!

وإبراهيم الذى لم ير منذ برهة سوى الموت . .

أدرك أنه يجب أن يلحق بالشاحنة . .

لابد أن يصل . . جرى . . نظر إلى يمينه ورأى ريهام تجرى . . تلهث مقطوعة النفس . . وجهها ضارب إلى الزرقة والألم يُطل من عينيها . .

نظر إلى يساره ورأى جهاد . . يحمل إنجى على كتفه . . ملامحه متجمدة . . نظرته مرتاعة . .

والآن كانت الشاحنة على بعد خطوات قليلة . . بعض الجهد . .

جهد إضافى . .

قفزت ريهام داخل الشاحنة . . ثم جاء دور جهاد . .

ولما هم إبراهيم بالقفز . .

سمع أزيزا وأحس بوخزة مفاجئة بذراعه . . صرخ من الألم . .

لكنه تشبث بقوة حاملا نضالا على كتفيه . .

وقفز هو الآخر . .

وصعد إلى الشاحنة . .

صعد إلى الشاحنة . .

صعد إلى الشاحنة .

فى اللحظة التى ركب فيها إبراهيم الشاحنة بجوار جهاد . . فقد وعيه . .

كان الألم الذى أحسه بذراعه بفعل رصاصة اخترقت جسده .

ظلت الرصاصة في جسده وأخذ ذراعه ينزف .

عاد إلى وعيه بعد قليل . . كان جهاد يهزه باكيا . .

إنجى لم تعد تتنفس . .

اللعنة . . ساعدنى يا إبراهيم . . إنجى لا تتنفس . .

أحس إبراهيم بألم شنيع فى ذراعه لكنه لم يتأوه . .

حين عرف ما حل بإنجى نسى ذراعه . .

وأخذ يتحسس نبض صديقته مذعورا . .

وكان رده دمعة تنحدر على خده . .

كانت الكراهية تظهر فى عينيه . . تجمدت قسمات وجهه . . ضغط على فكيه . . وأخيرا تمتم وهو ينظر مباشرة فى عينى جهاد . .

وهو ينظر فى عينى جهاد . .

لقد ماتت . .

لقد ماتت .

دفن جهاد وجهه فى شعر إنجى ، بينما الشهقات تهزه وأخذ ظهره ينتفض بعنف . .

كانت ريهام أمامه مغمضة العينين . . كانت تحت تأثير الصدمة لا تشعر بما يحدث من حولها . .

كانت تحدق فى الدم . . كانت تحدق فى جسد إنجى . .

دون أن تنبس . .

دون أن تتفوه بشىء . .

صرخ جهاد بالسائق قائلا بأن هناك جرحى، وأنه يلزم الذهاب إلى أقرب مستشفى . .

فى ذلك الوقت كان إبراهيم قد مدد نضالا وفحص الجرح الموجود أعلى ساقه . .

فقد نضال الوعى . .

لكن إبراهيم أدرك أنه سينجو، إن أمكن إيقاف نزيفه . .

ولما تذكر جسد والدة نضال مسجى على الأرض وحده هناك . .

والدم الذى كان يسيل متدفقا . .

شعر بغصة فى حلقه . .

وكادت الدموع أن تغالبه . . فأخذ يتنفس بعمق محاولا تهدئة نفسه . .

ولما نظر من جديد إلى ريهام . . لاحظ أنها ما زالت تتنفس بصعوبة، وأن عينيها ما زالتا مغمضتين . .

نادى إبراهيم على جهاد . .

جهاد ! . . انظر أختك . . إن بها شيئا يا جهاد . . جهاد عيناه تلمعان . . توقف عن البكاء على جسد إنجى وأخذ يحاول النظر فى العينين

عينى أخته . .

ولما رآها تتنفس بصعوبة . .

قال . .

يا إلهى . . إبراهيم . . ريهام مصابة بالربو . . اللعنة . . إبراهيم . . لابد أن نأخذها إلى المستشفى فورا . .

إبراهيم . . افعل شيئا . .

كان شيئا فظيعا . .

فظيعا . .

فإبراهيم لم يكن فى الواقع قادرا على عمل شىء . .

أى شىء . .

تماما مثلما لم يستطع فعل شىء لأم وأخت نضال . .

كما لم يستطع فعل شىء لأبيه نفسه . .

كما لم يستطع فعل شىء لكل من قتلوا فى تلك الحرب . .

وكما أنه لن يستطيع أبدا فعل أى شىء . .

اللهم سوى أن يظل متفرجا .

بعد حوالى عشر دقائق . . أطول عشر دقائق فى حياة إبراهيم . .

توقفت الشاحنة . . وبدأ الناس الذين كانوا بداخلها متجمدين فى أماكنهم . . صامتين طوال الطريق . .

بدءوا فى النزول . . لم يكن أحد ينظر فى وجه أحد . .

عَجَّل إبراهيم بالنزول حاملا نضالا وهو منهك، بينما حمل جهاد جثمان إنجى . .

تبعتهم ريهام بلا وعى . .

وقفز السائق بخفة أسفل المركبة، رغم أنه كان ـ كما لاحظ إبراهيم على الفور ـ رجلا كبيرا ضخما مفتول العضلات . .

لحق الرجل بإبراهيم، ورفع عنه نضالا بلا أدنى عناء . . وقال لهم اتبعونى . . يجب أن نسرع . .

دخل المستشفى واجتاز ممرا . .

كان المستشفى فى قمة الفوضى والممرضات تجرين فى كل اتجاه . .

كانت هناك أصوات صراخ مستمر . . كانت أصوات نساء فقدن أبناءهن . . أزواجهن . . آباءهن . .

توقف الرجل أمام أحد الأبواب ودخل دون أن يقرع الباب . . وبالداخل كان هناك فتى .

قال له السائق . . رامى . . أسرع . . إنها حالات خطرة . .

اختفى الفتى رامى خلف باب آخر، ولما عاد كان بصحبته طبيبان . .

أخذوا إنجى وتحققوا من وفاتها، وغطوا وجهها . .

أرسلوا نضالا على الفور إلى غرفة العمليات، وأخذ جهاد يضم ريهام بقوة، فقد كانت لا تزال أزمة الربو تداهمها . .

واهتمت بها طبيبة، بينما أخذ طبيب آخر يفحص ذراع إبراهيم ـ يعاونه فى ذلك رامى . .

وشرح له أنه يلزم وقف النزيف قبل الشروع فى أى شىء آخر . .
وأنه لابد من استخراج الرصاصة . . الأمر الذى سيكون مؤلما . .
ولكنه لن يستغرق طويلا . .

أخذ إبراهيم يحدق - مرتعدا - فى الممرض . . رامى كان صغيرا ونحيلا بقدر ما كان سائق الشاحنة كبيرا وضخما . . كان له شعر أسود أشعث ووجه وديع . . يبدو لطيفا . . كان حول عنقه عقدا معلقا فيه صليبا ضخما من الفضة . . كان واضحا أنه مسيحى .

راق رامى لإبراهيم منذ اللحظة الأولى ، كما راق له السائق الذى أشار له بالاقتراب ، بينما كان ذراعه يعالج . قال له إنه سيمتن له مدى الحياة ؛ لأنه أنقذهم ؛ وأن الله سيجازيه خيرا . . ثم سأله عن اسمه . . وعرف أن اسمه «محمد» ، فشكره مرة أخرى قبل أن تغالبه الدموع والآلام ثانية .

- هذا فظيع يا رامى ، لا يسعك أن تتخيل ما عاناه هؤلاء الصبية . . أنا لم أعد قادرا . . لم أعد قادرا على رؤية هذه الحرب ، وهى تقتل شعبى يا رامى . . أريد أن أصنع شيئا . . لا يمكننا أن نقف مكتوفى الأيدى بينما هم يقتلونهم جميعا . .

- أعرف يا محمد . هذه المناظر أراها كل يوم فى المستشفى . . وحين أعود لبيتى فكل ليالىّ مليئة بالكوابيس . هؤلاء الإسرائيليون متوحشون . . متوحشون . . يجب أن يُقتلوا عن آخرهم . . ليس فى قلوبهم أية شفقة بنا . لكن يا محمد ، يجب أن نحافظ على رباطة

جأشنا . . حتى الألم لا يجب أن ينال منا . . يجب أن نهزمهم بالتحكم في أنفسنا . . انظر عرفات . . ليس بمقدوره عمل شيء . . يقول شيئا وشعبه يفعل شيئا آخر . . بالاعتداءات والانفجارات لن نصل أبدا للسلام .

ـ لا يهمنى السلام . . السلام مستحيل أن يتحقق الآن! أيها الأبله . . ماذا تظن؟ إنهم ربما يريدون التنازل عن شريط من الأرض! إنهم يريدون إبادتنا كلنا . . تلك هى الحقيقة . . قد أشعر بالأسف لعرفات . . لكن لابد لى أن أفعل شيئا . اليهود آمنون فى بيوتهم، ونحن فى المقابل عندنا مستشفيات تمتلئ بأناس يموتون وبقرى تدمر . . بشيوخ يُضربون ونساء تُغتصبن . . لا يمكننا السماح للوضع بالاستمرار على هذا النحو! اسمع يا رامى . لقد اتخذت قرارا . . لابد أن أفعل شيئا! أم أننى لا أستطيع الاعتماد عليك؟

ـ محمد . . بالطبع يمكنك الاعتماد علىّ دائما!

ـ أنت صديق بحق يا رامى . . يا أماه . . كان يجب أن تكون حاضرا حين انتشلت هؤلاء الفتيان المساكين . كانوا الوحيدين الباقين فى البلدة . . كان الجميع قد ركب . . لكن الشاحنة الأخرى التى كان يقودها سامى لم تنتظرهم . . لم يستطع . . أعنى . . إننى لا ألوم سامى على هذا . . ففى الواقع كان سيُعَرِّض كل الراكبين للخطر . . أتفهم . . كانت مجازفة كبيرة . . لكن حين رفع أحدهم ناظريه . . ذاك الشاب الذى يدعى إبراهيم . . نعم . . لما رفع عينيه . . رأيت كل اليأس . . كل الخوف . . كل العجز الذى نتج عن تلك الحرب . . رأيت فى عينيه كل إخوتنا الفلسطينيين ولم يطاوعنى قلبى على الرحيل . . كنت سأعانى عذاب الضمير مدى الحياة . .

كان سيؤرقنى ذلك فى كل لحظة. لا شك أنهم أمطروا شاحنتى بوابل من الرصاص.. وكادوا أن يتلفوا الإطارات.. لكن فى النهاية كان هؤلاء الخمسة قد ركبوا.. أتفهم؟ حسنا.. ماتت واحدة منهم.. الله يعلم كم أحزننى ذلك! فتاة شابة.. لكن لم يكن بيدنا شىء.. هناك واحدة أخرى لا تزال تحت تأثير الصدمة.. وواحد لا يكف عن البكاء. أما الآخر.. أظن أن اسمه نضال.. فلا يزال بغرفة العمليات. يا ربى.. أعتقد أننى لن أحتمل المزيد من الذهاب والإياب بين القرى والمستشفى.

ـ لكنك يا محمد تقوم بعمل جليل.. أنت تساعد أناسا كثيرين.. أناسا يواجهون الموت وجها لوجه.. مثلما حدث اليوم. كيف تفكر فى التوقف؟

ـ يصلنا قتلى كل يوم يا رامى.. قتلى فوقهم قتلى! أعدادهم مهولة.. مهولة.. ثم ترى أقاربهم وهم يبكون ويصرخون.. والدم يا رامى.. لم أعد قادرا على غسل الدم من فوق شاحنتى.. أتفهم؟ أحلم بالكوابيس كل ليلة! أشعر وكأنى أموت.. لحظة أن أرى تلك العيون الجاحظة.. تلك الوجوه الشاحبة و.. لماذا يفعلون بنا ذلك؟ إنهم شعب ملعون.. قاسوا كثيرا فى الماضى؛ لكنهم الآن يريدون أن ندفع ثمن ما حدث لهم! أعنى أنهم اضطهدوا طويلا.. لماذا لا يبحثون عن بعض السلام الآن؟ لماذا يستمرون فى تلطيخ أيديهم بالدم؟

ـ لا أدرى يا محمد.. لا أدرى. سيعاقبهم الله بما يستحقونه.. سيعطيهم الجزاء العادل. لقد فقدت أسرتى فى تلك الحرب. لم يعد يبق لى شىء أفقده. رأيت كل شىء.. منذ ولادتى. رأيت

الرصاص يحطم نوافذ كنيستنا أثناء حضورنا للقداس . . رأيت المصلين يرتمون أرضا ويصرخون فزعا . . رأيت درجات مدرسة ابتدائية ملطخة بالدماء والسبورات ملوثة وبلاطات أرضيتها لن تزول عنها بقع الدم أبدا . رأيت جنودا فى العشرين من عمرهم يضربون الشيوخ وهم يتضاحكون . . ورأيت . . يا إلهى . . بالأمس حدث لى شىء فظيع . .

ـ ماذا يا رامى؟

ـ وأنا قادم إلى المستشفى . . كنت راكبا سيارة أجرة . . وكانت تسبقنا سيارة إسعاف . وفى لحظة ما أوقف بعض الجنود الإسرائيليين حركة المرور . . وصنعوا حاجزا وبدءوا يفحصون كل الأوراق . . تخيل؟ واحدا واحدا! قالوا إنهم يبحثون عن إرهابيين . . ومر الوقت بطيئا . . واغتاظ سائق الأجرة . . وصدرت صرخة من سيارة الإسعاف . . فانتابنى الخوف ونزلت من السيارة . . وذهبت لاستطلاع الأمر . . فقال لى سائق الإسعاف ـ وكان فتى شابا ـ إنه ينقل امرأة حامل . . كانت تتألم . . أتفهم؟! كان يجب أن تذهب للمستشفى لتضع طفلها . جريت إلى الجنود، وتوسلت إليهم أن يتركونا نمر . قلت لهم إن هناك امرأة حبلى . . كانت على وشك الوضع ، وأنها تموت ألما . أتعرف بما أجابنى هذا الجندى . . لعنة الله عليه . . أتعرف بما أجابنى؟! قال لى . . لتَمُت . . هذا ما قاله لى . . بوجه بارد . . بقلب مجرد من المشاعر . . ببرود ولا مبالاة . . لتَمت . جريت لرؤية المرأة . . كان معها بالداخل ممرضان يقولان لها أن تأخذ أنفاسا طويلة ومنتظمة . . لكنها كانت تصرخ . . كانت

تتألم بشدة. كانت تطلب أن ننقلها إلى المستشفى.. أن نسرع..
إنها لم تعد قادرة على الاحتمال.. لكن لم يكن فى استطاعة أى منا
نقلها إلى المستشفى.. لا أحد منا.. وقد أماتنى ذلك.. كيف يُعقل
أنه لم يكن فى وسع أى منا فعل شىء؟! كان الجنود حوالى ستة أو
سبعة.. كنا زمرة من أصحاب السيارات الذين يتقدون غضبا..
لكن لم يكن بوسعنا عمل شىء..

ـ ماذا حل بتلك المرأة؟ ماذا حل بها يا رامى؟

ـ يا إلهى.. صمدت يا محمد لمدة ساعة.. صارخة.. باكية.. ثم
بدأت تنزف.. تنزف كثيرا.. ثم ماتت بعد أن صفى كل دمها..
ماتت. والطفل أيضا مات.. مات.. ولم أستطع فعل شىء، بينما
كانت المرأة تشد على يدى.. يائسة.. وتنظر إلىّ بتوسل قائلة..
خذونى إلى المستشفى.. ولم.. لم آخذها.

لابد أن ذلك كان رهيبا يا رامى. لا أقوى على تصديق أن هؤلاء
السفلة يفلتون بفعلتهم هكذا كل مرة.. يوقفون المرور كما يحلو
لهم، ويتركون امرأة حبلى للموت. السفلة.. سيدفعون الثمن.

ـ لم أعد أؤمن بمستقبل لنا نحن الفلسطينيين. سيبيدوننا جميعا
لا محالة..

ـ عفوا.. عفوا.. أر.. أريد أن أعرف.. أين نضال؟

ـ آه.. لقد تعافيت! مرحى.. أنا محمد.. سائق الشاحنة. أنا سعيد
أن أراك فى حال أفضل.

ـ نضال.. أين نضال؟ وأخته إنجى؟ أين هما؟ أين وضعتم أصحابى؟
وأخى.. أخى جهاد.. وإبراهيم؟

ـ اطمئنى . . اطمئنى . . قبل كل شىء . . ما اسمك؟

ـ ريهام . . اسمى ريهام .

ـ حسنا . . إبراهيم وجهاد موجودان فى تلك الحجرة . . جهاد فى أحسن حال . . وإبراهيم لم يُصب إلا بجرح فى ذراعه . وهناك من يرعاهما الآن . . لا تقلقى .

ـ وإنجى ! أين هى؟ كيف حالها؟

ـ حسنا . . رامى . . إنجى . . أين . . رامى قل لها أنت . .

ـ من هى إنجى؟ هل هى أختك؟

ـ كلا . . إنها صديقتى . لكن أين هى؟ وأين نضال؟ هما بخير ، أليس كذلك؟ هما على قيد الحياة! أرجوكما . أنت أو صديقك . . قولا لى أين نضال وإنجى . ماذا بهما؟ . .

ـ حسنا . . نضال بغرفة العمليات ، لكنه سينجو بإذن الله . نأمل أن يصمد . . لكن إنجى . . حسنا إنجى . . لم يكن من الممكن عمل أى شىء لأجلها . . كانت قد فَقدت كمية ضخمة من الدم . . ولما وصلت هنا كانت قد . . كانت قد . .

ـ ماتت؟ ماتت؟ آه . . يا إلهى . . إنجى ! إنجى . . آه يا إلهى . . إنجى !

ـ محمد . . أسندها . أعتقد أنها ستفقد وعيها . كم أنا غبى ! ساعدنى . . لنحملها إلى الغرفة .

ـ يا ربى ! كان الأجدر بنا ألا نخبرها يا رامى . لنسرع . . لنحملها إلى الغرفة . . يجب أن نفيقها . . نعم ، هكذا . . انتبه للباب . بهدوء . . بهدوء . . انتبه . . هكذا . .

ـ احضر كوبا من الماء ومُهدئا . . ستَفيق فى حالة من التخبط وستصاب فى الغالب بنوبة من الهستريا . ساعدنى .

ـ حسنا يا رامى . . لكن انتظر بجانبها . سأعود فى الحال .

ـ يا لها من مسكينة . . انظر فى أية حالة هى . . الله وحده يعلم ما مرت به . كم أود أن أساعدك يا ريهام ، وأن أقول لك إن إنجى ما زالت حية وبخير! كَمَ أود لو كنت أستطيع ذلك! لكنى لا أستطيع . . لا أستطيع . .

ـ حسنا يا رامى . . لنرفعها . . نعم ، هكذا . . هزها و . .

ـ آآآه! إنجى! يا اللّه! إنجى . . نضــــال . . يا اللّه! لماذا؟ لماذا؟! أرجوكم . . أخبرونى أنها ما زالت حية! قولوا لى إنها بخير! أرجوكم . . لا يمكن أن يكون ذلك صحيحا . . لا يمكن أن تكون قد ماتت! أرجوكم . . أنقذوها . . أنقذوها! آآآه . . لماذا؟ يا إلهى . . يا إلهى . .

ـ أمسكها يا محمد . اهدئى يا ريهام . . اهدئى . .

ـ لا . . لا . . اتركانى . . أريد أن أموت! أريد أن أموت! لا . . اتركنى . . اتركنى . .

ـ أمسكها جيدا . . هكذا . . أمسكها جيدا . لا تتحركى . . سأحقنك بمهدئ . .

ـ لا ! اتركونى! أريد أن أموت! أريد أن أموت! آآآه!

ـ إنها مهتاجة جدا! أمسكها جيدا! هيا يا ريهام . . اهدئى . . كل شىء على ما يرام . . اهدئى . .

ـ نعم يا ريهام لا تقلقى . . هيا . . كل شىء على ما يرام . . كل شىء على ما يرام . .

ـ أخيرا قد نامت . يا للشقاء . . كانت كالمجنونة . لابد أنها صُدمت . .

ـ الموت دائما صدمة يا محمد . . حتى لو رأيناه كل يوم . .

ـ حين تفيق سيصيبها صداع فظيع ، وحمل ثقيل على القلب . . كم أتألم لحالها يا رامى !

إبراهيم كان منهارا . .

منهارا . .

كان ينظر بشراسة للذين يعالجونه . . كما لو كانوا هم المسؤلون عن كل مآسيه . .

كان يتأرجح بين حالات من البلبلة والألم

وأخرى من الوعى الشديد . . كان يسأل فيها عن أخبار أصدقائه . .

ويُجيبه المعالجون فى كل مرة بأنهم جميعا بخير . .

رغم علمهم بأن إنجى قد ماتت . .

وأنهم يكذبون . .

يكذبون . .

إحساس كان مجهولا تماما بالنسبة له، بما أنه لم يجربه من قبل . .

فالأب ليس بأسرة . .

اللهم إلا إذا كان يغمرك بالرعاية والحنان، ويحرص على أن يلعب دور الأب والأم معا . .

أب مثل والد إبراهيم لم يكن سوى أب فقط . .

وليس أسرة . .

وهكذا كان جلوسه هناك . . مع أناس يحبونه . . وقدرته على السكوت دون سماع صمت الوحدة الموحش . . لكنه هنا يسمع أصواتا . .

أصواتا لها أجراس مختلفة . . نبرات متغايرة في كل مرة . . أشخاص متباينون . . خليط من الأشخاص يستطيع العيش معهم مدى الحياة . .

كان يشعر آنذاك أنه إنسان محظوظ . .

شاب يعيش تحت سقف حقيقي . . يشعر بالشبع، وبالقدرة على الضحك قليلا . .

في الوقت الذى كان فيه مواطنوه . . عدد كبير من مواطنيه بلا مأوى . .

بلا رغبة في الضحك . . بل أسوأ من ذلك . . بلا أسرة . .

كان يشعر أنه محظوظ . . كان يشعر أنه محظوظ . .

حين كان يتكلم مع أصدقائه . .

ـ أتساءل أحيانا إن كنا سنخرج يوما من تلك الحرب . . أعنى . . كم من الوقت مَر علينا نقاتل! . . آباؤنا وأجدادنا وآباء أجدادنا لم يفعلوا شيئا آخر . . والآن نحن نفعل الشيء نفسه . . ومن يضمن لنا أن أبناءنا وأحفادنا لن يفعلوه أيضا! لو توقفنا يوما عن القتال وعن الاشتباك مع الجنود الذين يدخلون قُرانا؟ لو توقفنا يوما عن اللجوء للعنف ماذا سيفعلون؟ أسيقتلوننا أيضا؟ أسيستمرون فى التقدم بالدبابات وبالرشاشات؟ هل سيتوقفون عن احتلال أراضينا؟

ـ يا جهاد . . كل هذا كلام جميل، لكنهم ليست عندهم النية فى الانسحاب . . ولا تتخيل أنه يروق لنا القتال والمجازفة بأرواحنا كل يوم، ولكننا نقوم فقط بالدفاع عن أنفسنا يا جهاد . . أو على الأقل الدفاع عما بقى لنا . . قطعة بائسة من الأرض . . لو توقفنا سيأخذونها منا هى الأخرى . . لم يحترموا الاتفاقيات قط . . أبدا . . بل سعوا دائما إلى احتلال الأراضى . . أراضينا وأراضى لبنان . . كما حدث فى ١٩٧٨ . يريدون الاستحواذ على ما يقدرون عليه . . ليقيموا إسرائيل العظمى . . أرض الميعاد . .

ـ لكننا لا يمكننا الاستسلام للعنف! لقد ضقت ذرعا برؤية الناس يموتون، وبالحياة فى حالة حرب منذ ولدت . . كل يوم فى حياتى! أريد أن أموت فى بيتى . . فى التسعين من عمرى . . أثناء نومى . . لا فى العشرين بطلقة رصاص! كم نشعر بالراحة فى تلك اللحظات النادرة من الهدوء! كما لو كان كل شيء قد انتهى .

ـ تتكلم هكذا لأنك فى العشرين من عمرك يا جهاد . . وتشعر بالشباب والراحة، وتظن أن مثل هذا السلام يكفيك . لكن إن آجلا أم عاجلا ستضطر إلى فتح عينيك يا جهاد . . وأؤكد لك أنه يجدر

بك أن تفعل ذلك فى أقرب وقت ممكن. افعله الآن. . وابدأ فى مساعدة إخوانك. . لا . . خذ كلامى على محمل الجد. . أترى أن أصحاب المحادثات السلمية قد فعلوا شيئا ملموسا لأجلنا؟ إنه لشيء محزن أن أقول ذلك. . لكن الطريقة الوحيدة لإنقاذنا الآن هى العنف. . أتعرف ما يثير حنقى؟ تلك البلاد! ! البلاد الأوروبية. . التى تنتقد انتفاضتنا، لكنها فى الوقت ذاته لا تقدم لنا أى عون. إن لم تكن الحرب أفضل حل فلم لا يفعلون شيئا ملموسا؟ الحقيقة أن الحرب تكون الطريق الخطأ فقط حين يكون ذلك فى صالحهم. . هكذا، تلك هى الحقيقة. . إبراهيم ألن تقول شيئا؟

- أنا أريد الانتصار. . لا شيئا آخر. . أن أعيش فى هدوء فى بيتى دون أن أخشى أن يأتى أحدهم من يوم لآخر ليطالب بأرضى. لو كان العنف هو الحل الوحيد الباقى للوصول للسلام. . فيجب تقبله والسعى للأفضل. . كما يجب احترام العدل. . لأنه كما كان يقول أبى دائما. . لا سـ. .

- لا سلام بدون عدل. تعيد ذلك علىّ كل يوم يا إبراهيم، منذ تعارفنا. . مؤكد أن والدك كان رجلا صالحا.

- نعم. . كان كذلك. لم يكن يفكر إلا فى الدين. . فى الله. . فى الأعمال الحسنة. . وفى السلام. كان رجلا مستقيما، لكن ذلك لم يكن كافيا. . لم يكن كافيا! لكم وددت أن يكون الإيمان كافيا. . لكم وددت! حين يأتون إلى بيتك ليقتلوك. . ليأخذوا حاجياتك، فهم لا يحصون عدد المصاحف التى تملكها أو المساجد التى تصلى بها. . الإيمان لا يكفى.

ـ لكن لم تقولون ذلك؟ يجب أن نتحلى بالإيمان بالله . . يجب أن نؤمن به . إنه يوصينا بتقبل المحن والصبر عليها . . ونتقبل نعمه ونحمده لأجلها . . إنه يقول لنا إن الذين يتألمون سيظلهم تحت جناحه . سنتعذب فى الأرض وسيُرد إلينا حقنا ممن ظلمونا يوم الحساب . . سنعانى على الأرض وسننعم فى جنات الله . فلماذا لا نؤمن بذلك . . ونقرر أن نصبح نحن أيضا من الظالمين؟ أطفالنا الذين يموتون هم مثل أطفالهم الذين يموتون . . نفوس بريئة! لماذا نرغب إذا فى قتلهم؟

ـ اسمع يا جهاد . . كل هذا منتهى النبل . . لكنهم لا يفكرون بالمثل . . هم لا يتساءلون عما إذا كان ربهم يقبل العنف . لقد قاسُوا . . واضطهدوا . . وبدلا من أن يتعلموا من ذلك . . بدلا من أن يرحمونا لأنهم يعرفون معنى الألم . . يذيقوننا نفس الآلام التى ذاقوها . بدلا من البحث عن السلام . . لنا . . ولهم . . يأتون لاحتلال أراضينا . . ويطلقون النار على ضحاياهم دون حتى النظر إلى وجوههم . لو رأيت يهوديا وجها لوجه سأسأله : ألا تخاف الله؟ وأرغب حقا فى سماع رده . .

ـ نضال . . أعرف أنك على حق إلى حد ما . . إنهم لا يتوانون لحظة على أن يفعلوا بنا ما فُعل بهم . . وهم لا يشفقون على شعب نسى بسببهم معنى السلام . . لكنك تعرف أفضل منى أنهم يُمسكون بكل الكروت الرابحة . فكيف بنا نأمل أننا فى النهاية ـ إذا ما كان هناك نهاية أصلا ـ سنكون المنتصرين؟ ألا يجدر بنا تحاشى المزيد من القتلى . . والدمار . . ومحاولة استئناف الحوار؟

ـ جهاد . . لقد حاولنا الحوار ألف مرة . . وألف مرة نقضوا

الاتفاقيات . . فعلوا ما أرادوا مُتَحَدّين العالم كله . لو كان هناك حل آخر لكنا حاولناه . . لكن كن متأكدا . . ما من حل آخر . تسألنى كيف يمكننا الانتصار؟ وأنا أجيبك بالإيمان . . وعدم التخلى أبدا عن الإيمان . . ولا لحظة واحدة . . حتى ولو قهرتنا المعاناة . . وحتى لو بقينا وحدنا فى المحنة . لا يجب أن يكون لدينا هدف آخر . . سوى الدفاع عما نملك . . عن أرضنا . كان أبى يقول لى دائما ـ حتى اليوم الأخير ـ أن أتحلى بالإيمان وألا أستسلم أبدا . إن العودة إلى الحوار الآن تعنى الاستسلام لإرادتهم والانصياع لتعسفهم . نضال . . أنا أيضا لا أريد العنف . . فإن وجدت سبيلا آخر دُلّنى عليه . . فأنا مستعد لاتباعه على الفور .

ـ أنا . . لا يا إبراهيم ، أنا أيضا لا أملك سبيلا آخر . لا أعرف . . يحدث أن تصحو يوما . . ترى الشمس . . يبدو لك كل شىء جميلا وتتساءل : لماذا نفسد كل هذا؟

ـ أنا أيضا . . هذا الصباح . . هه ، انتظروا لحظة! أتسمعون؟ ما هذه الطلقات؟ أتسمعون؟

ـ صحيح! لا أريد حتى أن أفكر فى الأمر . تعال يا نضال . . لنسرع . . لنستطلع الأمر .

وانتهى كل شىء فى لحظة . .

الهدوء . . النقاش . .

الحالة العادية . .

الحالة العادية التى تؤدى إلى الإرهاق . .

كل شيء انتهى . .

والآن . .

الآن كان هناك . . يرقد فى تلك الغرفة بالمستشفى . .

تحت ملاءات بيضاء نظيفة . .

وأسرِةّ أخرى بجانبه، وأناس آخرون أُنتزعت منهم الحياة . .

تتداخله الأفكار والأحاسيس . .

تقلقله . .

تحمله ثمن ما حدث . .

لم يستطع أن يذرف دمعة واحدة . .

على . .

إنجى وأمها . .

شَعر بغُصة فى حلقه . . اضطراب فى معدته . .

لكنه لم يقدر على البكاء . .

لكنه تمنى ذلك . .

لكنه تمنى ذلك . .

لا شك أن والده كان ليفخر به . .

ومن حقيقة أنه لم يبك . .

لكن لم يعن ذلك شيئا لإبراهيم . . فى تلك اللحظة . .

لم يعن له شيئا أن يكون رجلاً . .

كان يريد فقط أن يجد ركنا . . فى خبايا آلامه . .

ركنا آمنا جدا ، وفى نفس الوقت خطرا للغاية . .

ركنا صغيرا مريحا . .

يقبع فيه إلى الأبد . .

يعانى فيه إلى الأبد . .

وربما . . يموت فيه أيضا .

ظلوا بالمستشفى لمدة أسبوع . .

تمت عملية نضال على وجه حسن . .

لم يبق له من الحادثة سوى ندبة صغيرة . .

والألم الفظيع . .

الفظيع . .

المتعذر علاجه

الظلم . .

المتعذر علاجه . .

ألم يشغل حاليا كل جزء من حياته . .

في لحظة واحدة وجد نفسه بلا أم . . بلا أخت . . بلا أسرة . .

كيف سيحمل الخبر لوالده؟

إنه في الوقت الذى كان يعمل فيه بلا هوادة في سوريا . . قُتلت زوجته وابنته على يد جنود إسرائيليين . .

إن أسرتهما اختفت من الوجود!

وكيف سيتصرف هو؟ نضال . . كيف سيعيش بدون إنجى . . بدون لطفها وحنانها . . وطريقتها في العيش بفرح وبعدم اكتراث . . بدون مداعباتها وملاطفاتها . . بدون هتافاتها المرحة . . في الصباح . . عندما كانت توقظه من النوم . . بدون مساندتها . . صدقها . . إخلاصها . . بدون مساعدتها في الأوقات العصيبة . . بدون «بلوفراتها» التى كانت تحسن غزلها . . بدون حبها للحياة . . بدون عينيها الواسعتين العميقتين . . بدون ابتساماتها الناعمة المتسامحة . . بدون رقة تعاملها . . وذوقها . . ورصانتها . . وفهمها له على صغر سنها . . مع أنه حتى لم يكن يبذل جهدا لشرح أو فعل أى شيء؟

كيف سيعيش بدونها؟!

وكيف سيتقبل فكرة فقدان أمه؟!

المرأة التى جلبته إلى الدنيا والتى منذ ذلك اليوم رعته وأحبته بلا حدود، التى كرست حياتها لتلبية كل احتياجاته، التى طالما قدرته لشخصه، التى كانت تقول له كل صباح - حين كان يهم بالخروج - أن يغطى نفسه جيدا، التى كانت في شهر رمضان تنتظره دون طعام حتى

بعد صلاة المغرب؛ لأنها كانت تصر على ألا تتركه يأكل وحده فى لحظة جميلة مثل وقت الإفطار، التى خافت عليه فى كل لحظة من تلك الحرب اللعينة الظالمة . .

نضال كان عليه المواصلة . .

كان عليه الاستمرار فى الحياة حتى بدون أهم شخصين فى حياته كلها . .

كيف يمكن ذلك؟!

ريهام كانت قريبة جدا منه . . وكانت قد تعافت من الصدمة وكانت تحسن دفن ألمها فى خبايا قلبها . .

حتى تبدو قوية ومهيأة لمساندة نضال . .

وكانت تقضى لياليها تبكى حتى يصيبها الإعياء وحيدة فى صقيع حجرتها . .

إبراهيم كان مقلا جدا فى كلامه . . دائم الانعزال . .

جهاد كان يحاول الحفاظ على وحدة المجموعة؛ لأنه بعد الحادث كان قد خبر الموت عن قرب . .

واستنشق رائحته . .

ورأى لونه . .

ولهذا كان يشعر بحاجة شديدة للحب تصل إلى حد الألم . .

محمد ورامى كانا يقضيان أوقاتا طويلة مع الأصدقاء الأربعة . .

وانتهى بهما الأمر بأن أحباهم . .

وشعرا بنفسيهما قريبين منهم . .

لأن الأربعة كانوا قد فقدوا أسرهم . . من قبل .

والأربعة كانوا قد عرفوا معنى الألم . . من قبل .

إبراهيم أدرك أنهم بدءوا يشكلون مجموعة صغيرة . .

وهذا جعله يفكر . .

هل يوحد الألم بين الناس؟ هل يفعل ذلك حقا؟

كان عنده انطباع أن الألم يشده بلا رحمة . .

إلى الفراغ وغياهب الوحدة . .

وأحس أنه لن يقوى على فعل شيء . . ولن يتمكن من ذلك أبدا . .

كان يتابعهم ويرى البسمات الصغيرة المطمئنة التى كانوا يتبادلونها . .

ليعزوا أنفسهم . . ليبعثوا شجاعتهم . .

لينجحوا فى أن يصيروا أقوياء . . .

كلهم معا . .

وذات ليلة حدث ذلك . . حلم بأبيه . .

غط سريعا فى النوم . . تلك الليلة . . نوما مضطربا . . حتى أن

رأى نفسه مرتجفا . . ملطخا بالدماء . . ملقى على الأرض . .

ورفع نفسه ونظر حوله باحثا عن أثر للحياة . .

لكن لم يكن هناك شىء . .

ولم يكن هناك أحد . .

كانت رؤية غير مفهومة للفراغ . . للعدم . .

الذى يكتنفه . .

كانت نهاية أو بداية . .

لم يتوصل إلى صبغ هذا الموقف بلون . .

أبيض أم أسود؟

ثم حضر . .

كان يمشى بطريقته الخاصة . . مائلا قليلا إلى اليمين . . ذراعاه مفرودتان بطول قامته . . نظرته مستقيمة . . رأسه مرفوع . . خطواته ضيقة . . لا نهائية . .

كان يرتدى جلبابه الأزرق المعتاد وتحمل قسماته تعبيرا جادا .

لم يبتسم أبدا . .

كم مرة رآه إبراهيم فيها يبتسم؟ مرة . . مرتين؟

وبهذا التعبير الجاد الذى يبدو مُنذرا بالخطر بعض الشىء . . تقدم أكثر فأكثر . . مُثَبِّتا نظره عليه . . ولما اقترب بشكل كاف . .

مد يده . . مدها ببطء . . بحركة مهيبة وودودة فى آن واحد . .

لم يتردد إبراهيم لحظة ومد له يده . . وتبعه . .

مشيا حول الفراغ . .

أحاطا به . . ملآه . . اتحدا به . .

صارا جوهر الحلم . .

وفى تلك اللحظة أحس إبراهيم بالحياة تدب فيه ولم يعد يشعر أن ذلك حلم . .

وفى تلك اللحظة . .

ودون أن يحول نظره عنه . .

قال شيئا . .

شيئا واحدا . .

لكنه كان يعنى الكثير بالنسبة لإبراهيم

كان كل شىء . .

قال . . وبهدوء شديد وبصوت يكاد يكون غير مسموع . .

لست وحدك.

كان محمد يعيش فى بيت صغير قريب من المستشفى . . وفى اليوم الذى سمحوا لهم بالخروج أخذهم فى شاحنته إلى بيته . . وأدخلهم وقال لهم أن يتصرفوا كما لو كان بيتهم . . لأنه كان بيتهم .

حضر رامى لرؤيتهم ساعة الغداء . . وجهزت ريهام أرزا وبازلاء

بالصلصة . . كان الطعام لذيذا جدا . . ومر الوقت فى الحديث والنقاش . . بلا حيوية . . ولا فرح . . لكن كان هناك شعور بالتضامن بينهم .

نضال الذى كان دائم الضحك والتهريج مع ريهام والذى لم يكن ليضيع فرصة للسخرية منها بسبب طيشها . . كان صامتا مكتفيا بمراقبة الآخرين . .

فهم إبراهيم أن صديقه كان يفكر . . يفكر . . وأن شيئا ما سيحدث عما قريب . . شيئا ما سيتغير .

لم ينتظر طويلا . . بعد بضعة أيام انتحى نضال بإبراهيم جانبا . . وقال له :

ـ اسمع يا إبراهيم . . أريد أن أقول لك شيئا . فى الواقع قد مر علىّ بعض الوقت أفكر فيه ولم أدر كيف . . القصد، كيف أقوله لك؟ تعرف أننى أحبك مثل أخى . . بل أنت تعنى لى كل شىء الآن . أنت كل ما بقى لى . . فأنا . .

ـ كنت أعرف ذلك يا نضال . . فقد مر أسبوع وأنت صامت . . تتابع كل شىء كما لو كان لا يعنيك . كنت أعلم أن شيئا سيحدث لكن بالله عليك يا نضال لا تتركنى أضرب أخماسا فى أسداس . . ماذا هنالك؟

ـ قد قررت أن . . قررت الرحيل . . الرحيل . . أعنى . . لا تظن أننى أريد أن أختفى وأن أنساكم . . فلن تتخلصوا بسهولة من صديقكم القديم . . نضال . . لكننى لم أعد قادرا . . أشعر أننى أموت . . حقا . . أنتم تمتلكون قدرة فريدة على علاج أنفسكم لكنى لا أستطيع

ذلك . حقا لم أعد قادرا . . لست قادرا علي ادعاء أن كل شيء على ما يرام . . لست قادرا على الابتسام . . لست قادرا على الشعور بالسلام مع نفسى . . لست قادرا على القراءة . . لست قادرا على أى شيء . . حاولت . . حقا . . لكن . .

ـ لكن . . ماذا تقول يا نضال؟ ترحل! إلى أين؟ تريد أن تتركنى هنا؟! أنا . . أنت . . ألا تتذكر؟! لدينا الكثير من المخططات . . مستقبلنا معا . . لا أستطيع التفكير فى شيء بدونك . . حتى ولو شراء اللبن . لماذا . . لماذا لا تريد البقاء مع من يحبونك؟ اسمع يا نضال . . أفهم تماما الجحيم الذى تحياه . . حين فقدت والدى كدت أجن من الألم وقررت الرحيل . . فقطعت كل صلة لى بماضىّ . . لملمت أشيائى وجئت إلى هنا . . لكن كان ذلك من العبث . . قابلت أناسا آخرين علمونى أن أحب . . لأننا لا يمكننا الهرب من الألم . . فهو يتبعنا أينما كنا . . والواقع أن الوحدة تجعله أصعب احتمالا . لقد ارتكبت خطأ . . والآن . .

ـ حسنا . . دعنى أرتكب أيضا هذا الخطأ . . . أعطنى الفرصة للوقوع فيه . . ثم ربما تأتى إلىّ لتقول : أرأيت . . كنت على حق . . لكن اسمح لى بعمل ما أحتاج إلى عمله . . حتى لو كان خطأ . .

ـ اسمع يا نضال . . كلنا فى حالة سيئة . . كلنا . . نتكلم . . نتبادل ابتسامات التشجيع القليلة . . نحاول قضاء الأيام برباطة جأش . . لكن بالليل . . ونحن وحدنا مع الأفكار . . يغمرنا الألم . نحن نصارع اليوم بيومه لكن حتى ننجح فى ذلك يجب أن نظل متحدين . . كلنا معا . . لا أن نتفرق فى القرى . . كل يعميه ألمه الخاص . لا يمكن أن نكون من الخاسرين .

ـ حسنا . . يؤسفنى ذلك يا إبراهيم . . لست من الرابحين مثلك . . لذا يمكننى أن أخسر . . إذا كان رحيلى يعنى ذلك . لا تحاول إقناعى من فضلك . لقد اتخذت قرارى .

ـ ألا يمكننى فعل شىء لإقناعك؟ ألا يمكننى قول شىء لتعدل عن فكرتك؟ أتتخلى عنى؟ أترحل؟ وكيف تظن أنه يمكننى المواصلة؟ كيف تظننى أتغلب على الأيام والليالى؟ من سيمنحنى سببا للاستمرار . . للمواصلة؟

ـ هناك ريهام وجهاد وأيضا محمد ورامى الآن . سيمنحونك سببا للمواصلة . سيساعدونك .

ـ لكن الوضع مختلف . . لن يكون نفس الشىء .

ـ أعرف ذلك يا إبراهيم .

عناق . . عناق . .

دمعة . . اثنتان . .

لا . . لا . . توقف عن هذا . . افعل شيئا لوقفها . . ألا تستطيع؟!

عبثا . . لحظة كهذه . .

لحظة لا يمكن وقفها . .

احتضن إبراهيم نضالا بكل قوته واستسلم للدموع . .

تَهُز جسمه الشهقات . .

تَحجب الدموع الرؤية عنه . .

يعتصر قلبه ألم لا يوصف . .

كل ما بناه منذ وفاة أبيه انهار فى لحظة . .

كل ما بناه . .

وانفجر ضعفه . .

صار مرهقا من الآلام والعذاب . .

مرهقا من الحرب والدم . .

وكان يريد فقط أن يعيش مع أحد . .

يُذكِّره صباحا بأبيه . .

يُذكِّره ظهرا بأبيه . .

يُذكِّره مساء بأبيه . .

يَمنحه سببا للحياة . .

يرحل الآن . .

ويتركه هنا . . وحده . . بلا حماية . .

فى مواجهة كل مخاوفه وضعفه . .

شهقة أخرى . . أقوى . .

الألم قوة تُحطم كل مقاومة . .

يتغلغل متسللا فى المخاوف والأحلام والأفكار والأحاسيس والعواطف والحقائق . .

وحين يهدأ أخيرا . .

كعملية ولادة تصل إلى نهايتها . .

أو عمل فنى يخرج إلى النور كاملا . .

جاهزا أخيرا . .

حين يهدأ أخيرا . .

يترك وراءه فراغا . . سأما . . عدم تصديق . .

عناق . . شهقة . .

بينما تأتى من جهة باب المطبخ شهقة أخرى صغيرة . .

لا . . ليست لإبراهيم . .

ولا لنضال . .

بل للبائسة . .

غير المصدقة . .

المحتجبة ريهام .

رحل نضال بعد يومين . لم يجرؤ أحد على محاولة إقناعه . . ورجع ذلك من ناحية إلى ثبات عزمه . . ولأنهم شعروا من ناحية أخرى أنهم شديدو الصغر فى مواجهة الألم الذى يعانيه فتى فى مثل شبابه فَقَدَ أمه وأخته . . ومن ناحية ثالثة ؛ لأنه كان هناك شىء فى أعماقهم يقول لهم إنه سيعود . .

سيعود . .

كان لا شك أملا ضعيفا كانوا يسعون إلى تحويله يقينا . .

نظر نضال إليهم واحدا واحدا . . وابتسامة حزينة على شفتيه . .

جهاد الذى كان يفرك عينيه . . متظاهرا أن كل شىء على ما يرام . . مجردا من شجاعة الاعتراف بأنه كان يبكى . . نعم، لم يكن قادرا على كبح دموعه . . ليعطى إيحاء بأنه قوى . . محمد الذى كان يغمز غمزات صغيرة ويثير البسمات قليلا عن الآخرين وتخفيف حدة الموقف . . فى حين كان حقيقة يعانى داخليا مثل الآخرين . . رامى الذى بدا مرتبكا ومترددا . . كان يجول بنظره فى كل مكان دون أن يثبته على شىء . . ريهام التى كانت تنظر أرضا ولا تكف عن البكاء . . لا تكف عن البكاء منذ يومين . . وتبحث عن بعض العزاء من إبراهيم . . بنظرة توسل فى عينيها . . تسأله أن يُقنع نضالا بوسيلة أو بأخرى بالبقاء . . وأخيرا إبراهيم . .

إبراهيم الذى لم يفعل أى شىء مثلهم . .

بل اكتفى بالنظر فى عينيه . . كان يُكلمه . . يواجهه بنظرة كلها اتهام . . لا يكف عن مخاطبته . . عن النظر إليه . . كما لو كان يقول له . .

ستفقد كل هذا . . ستفقد كل هذا . .

لكن لم تكن تلك وسيلة لإقناعه بالبقاء . . لا . .

بل طريقته الخاصة فى وداعه قائلا . .

ستعود . .

ستعود . .

وعند لحظة معينة ساد الصمت . . توقفوا جميعا عن الكلام فى آن واحد . .

ابتسم نضال مترددا . . نظر حوله . .

وقال أخيرا وهو يضغط على كل كلمة . .

لن أنساكم أبدا . . مهما حدث . .

لن أنساكم أبدا . .

وبالأخص حين ننتصر سنتساوى جميعا . . نحن . . والذين فقدوا حياتهم فى تلك الحرب . .

سنجد السلام . . أقسم لكم بذلك . . أقسم لكم بذلك .

ثم عانقهم جميعا . . واضعا يداه على قلبه . . ليفهمهم أنهم سيظلون فيه فى كل لحظة من حياته . . وضَمّ إبراهيم طويلا . . ظلا متعانقين لوقت بدا . .

لا نهاية له . .

انصهرت فيه كل مشاعرهما وأحاسيسهما . .

وتبادلا وعدا ضِمْنيا . .

بالتلاقى . .

بالتلاقى .

ثم التفت نضال وذهب . . الخطوة بطيئة لكنها واثقة . . الظهر محنى قليلا . .

ثم كان النداء . .

صوت ريهام الناعم القوى . .

نضال . .

التفت فى اللحظة التى جرت فيها نحوه . .

تعانقا بقوة . .

ظلا متحدين . .

قائلين قوة الضمة وحدها . .

ألف كلمة . .

باكين وضاحكين . .

وأخيرا مفترقين . .

نظر كل واحد فى عين الآخر . .

مرة أخيرة .

بدت الأيام الأولى بعد رحيل نضال طويلة بشكل لا يصدق . كان كل واحد يستيقظ صباحا بفكرة واحدة فى رأسه . . التغلب على الحزن ورتابة الحياة المسيطرين عليه .

كانت ريهام فى كل مرة تُسقط فيها شيئا أو ترتكب حماقة . . تلتفت . . متوقعة ضحكة نضال الدافئة وكلماته الساخرة . . مزاحه الرقيق .

لكن لم يكن أحد يقول لها أى شىء . .

وصوت نضال كان فقط فى خيالها . .

كان إبراهيم قبل الخروج يقول . . سأذهب مع نضال . . شىء يتنافى مع العقل . . ثم يتذكر أن نضالا لم يعد موجودا . . لم يعد موجودا . .

ولم تكن تواتيه القدرة ليطلب من جهاد مصاحبته . .

لأنه كان يعرف أن ذلك مجرد ذريعة . .

ولم يبد له ذلك من العدل .

ظل «محمد» ـ مع إحساسه بغياب نضال ـ

محتفظا بابتسامته ومرحه . .

كان يمزح . . ويحيى المناقشات . .

كان يحافظ على وحدة المجموعة . .

وعندما كان يذهب إلى المستشفى مع رامى ، كان غيابه محسوسا . .

والبيت يسوده السكون .

أخذ إبراهيم يخرج كثيرا ، ويقضى طوال النهار بالخارج . .

كان يعود دون أن يعطى أى تفسير لجهاد أو ريهام . .

الشىء الذى ضايقهما وأقلقهما أيضا .

كان نضال دائما نقطة الرجوع لكل واحد منهم . .

وغيابه كان يربكهم ويخيفهم . .

وكأن شيئا جوهريا كان ينقص كل مناقشة . .

كل موقف . . كل جدال .

مع مرور الوقت بدءوا يواجهون مشكلة حقيقية فى التواصل . .

فلو حدث أن تكلموا مع بعضهم البعض كان ذلك فقط للشجار . . للإساءة والتراشق بالشتائم . .

كان كل واحد يَصب غضبه على الآخرين . . ويُنفس عن ضيقه الشديد من ذاك الصراع الأزلى مع الأشخاص الوحيدين الذين يحبهم كل الحب . . والذين بفضل وجودهم إلى جواره يمكنه نسيان الحرب ولو لحظات . الآن صاروا لا يتكلمون عن السلام . . الحوار . . سياسات عرفات أو الاعتداءات والعمليات الانتحارية . . اكتفى كل واحد بجلب أخبار ما يحدث طوال اليوم . . احتلال بلدة أخرى . . مصرع مجموعة من العائلات الفلسطينية . . إصابة إسرائيليين . . موت ثلاثة أشخاص . . الهجمات . . أعمال العنف . . كانوا يتقاذفون بأحمال الحرب الثقيلة كما لو كانوا يريدون إيذاء أنفسهم . . يكررون الكلمات . . الأحداث الأكثر مأساوية . . الاستنتاجات ذات الطابع السوداوى . . ويُبدون تشاؤمهم علانية من مصائب الحرب .

كانوا يعرفون أن الهواء السابح فى فراغ البيت مشبعا بالتوتر . . بعدم التفاهم . . وبالأحقاد . . لكنهم لم يفعلوا شيئا لتحسين الأوضاع . . بدا الأمر كما لو كان رحيل نضال المفاجئ قد أبرز أسوأ ما فيهم . . ورغم إدراكهم لذلك . . ازداد الموقف تأزما .

ذات ليلة . . لم يعد إبراهيم إلى البيت . . وفى اليوم التالى عاد

حوالى الحادية عشرة صباحا فى حالة مرح ولا مبالاة وصلت إلى حد الوقاحة. . نشب شجار بينه وبين ريهام المغتاظة. . فشلت محاولات محمد ورامى وجهاد لتهدئتها.

ـ إبراهيم! . . الحمد لله والشكر له! كم أخفتنا! يا إلهى. . إبراهيم. . أنت. . أنت. . أنت عديم الإحساس. . نعم، أنت فعلا أنانى بشع عديم الإحساس! أين كنت؟! لقد كنت أرتجف رعبا طوال الليل! القصد. . لكن كيف يا إبراهيم؟ كيف جرؤت. . كيف جرؤت؟! تختفى هكذا دون أن تقول شيئا لأحد. أليس عندك قلب؟ هه؟ لقد قضينا الليل بطوله نبحث عنك فى كل المستشفيات، فى الشوارع، فى كل مكان، والخوف يقتلنا. . مذعورين. . مرعوبين! ماذا يدور فى رأسك؟ أنا أكرهك! منذ رحل نضال لم تكف عن سوء الطبع وقلة الأدب واللامبالاة! أنت تجعلنى. . أنت تجعلنى. . لست أعرف حتى إن كنت أشفق عليك أم إنك تصيبنى بالغثيان! لتفهم جيدا أننى لا أطيق أن أراك ثانية. . اذهب وإلا اضطررت أن أبصق عليك. . بل. . بل انتظر لحظة. . أين كنت؟! هه؟ أم أنه سر؟

ـ اسمعى! اهدئى أولا واخفضى من صوتك! ثم إننى لن أسمح لأى شخص بأن يحاسبنى على أفعالى وتصرفاتى! كيف تجرئين على شتمى وعلى رفع صوتك علىّ؟ فمهما كنت لست سوى امرأة!

ـ هكذا؟ وماذا يعنى ذلك؟ والآن تمارس على رجولتك! كم أحتقرك!

ـ كفى يا ريهام. . اهدئى. . ليس هناك ما يدعو لـ. .

ـ اسكت أنت يا جهاد! وأنت أيها الوقح ما الذى ترمى إليه بقولك

إننى لست سوى امرأة؟ هه؟ أين قرأت أن الرجال أفضل من النساء، أو أنهم يمتلكون حقا أكبر فى الكلام والصراخ والغضب وفعل ما يحلو لهم؟ كيف تجرؤ أيها الوقـ . .

- بل لى الحق فى ذلك! أعود للبيت متعبا . . منهكا . . وأفاجأ بمخبولة فى حالة هستيرية تصرخ فى وجهى وتشتمنى . . فكيف يكون رد فعلى؟ بما أننى لا أعنيك فى شىء و . .

- لكن يا إبراهيم . . هى لم تقل إنك لا تعنيها!

- اسكت يا محمد! وأنت لم يجبرك أحد على الذهاب للبحث عنى! أنا أخرج حين يحلو لىَ وأنت اهتمى بشئونك! فقد ضقت ذرعا بالعيش مع امرأة هستيرية تريد أن تلعب دور الأمومة علىّ! من الأفضل لك أن تخفضى من صوتك . . اذهبى للنوم . . أو افعلى أى شىء آخر فسيكون ذلك أفضل للجميع!

- آه . . أهكذا تعاملنى؟ أهكذا تثبت لى محبتك وعرفانك بالجميل؟ أنا التى تقضى كل وقتها فى خياطة جواربك وتحضير طعامك وانتظارك مهما تأخرت . . والتحدث معك قليلا حديثا لا يخلو من الرقة . . وتسوية سريرك . . وكَىّ قمصانك . . والقلق عليك فى غيابك . . وأنت تشكرنى بالصراخ فى وجهى بأن أهتم بشئونى وأن أترككم فى حالكم! أتعرف ماذا أقول لك؟ . . أنت من جنس وضيع . . أتعرف ماذا أقول لك؟ سأرحل إلى الأبد! هكذا لن أزعجك ثانية . . وستسهر الليل كله تفعل ما يحلو لك دون أن تقلق عليك مخبولة هستيرية كما تقول عنى! سأرحل الآن . . هكذا ستر تاحون جميعا وستكونون أسعد حالا!

ـ ريهام . . إنك تبالغين الآن . . نحن لا نريد أن نرحل من هنا . . نحن وسط أصدقائنا . . ليس هناك ما يستحق هدم كل شيء من أجل شجار . .

ـ جهاد عنده الحق . . إبراهيم أخطأ بلا شك ، لكن لا يجب الانفعال إلى هذه الدرجة .

ـ لا تتدخل يا رامي ! وأنت يا جهاد . . إن كنت تريد البقاء فلتبق ! لا أجبرك أن تتبعني ! بل على العكس أراك بدأت تفكر مثلهم . . أنا لست سوى امرأة ويجب أن أسكت . . ليس لي الحق حتى في الغضب . .

ـ لكني لم أقل هذا أبدا ! ريهام . . حاولي أن تهدئي . .

ـ لا لن أهدأ ! ألا تلاحظ أن ما من أحد يحترمني هنا؟ ألا تلاحظ أن . . أنت السبب يا إبراهيم ! أنت ! كل هذا بسببك ! أنت عديم الإحساس ! لعلها تلك الحرب القذرة التي غيرتك هكذا . . أو ربما كان رحيل صديقك العزيز نضال هو الذي فعل بك هذا . . لقد صرت وحشا ! أتريد أن تعرف؟ تلك الليلة كان أجدر بك أن تختفي للأبد . . على الأقل كنت سأكف عن القلق . . أرأيت . . إن الغيظ يجتاحني لمجرد التفكير في الدموع التي ذرفتها عليك تلك الليلة . .

ـ لم يسألك أحد أن تذرفين الدموع ! تقومين بتمثيلية كبيرة وتتظاهرين بأنك راحلة ، لكن لن يغير ذلك شيئا ! أنت تثيرين الشفقة . . أنت إنسانة مريضة نفسيا عاجزة عن فعل أي شيء . . تهاجم شخصا ليس له دخل بشيء !

ـ سترى إن كنت أتظاهر أم لا ! سأرحل . . وما دُمت قد قلت هذا فسأفعله حتما !

ـ لا . . بل سأذهب أنا!

ـ لا . . لا يا عزيزى . . لا تعكس الأشياء! لقد ضقت ذرعا بك! ابق هنا حتى تقتل الآخرين حزنا عليك . . رامى . . محمد . . وجهاد طالما سنحت لك الفرصة . لأنك يجب أن تعرف يا إبراهيم . . تذكر ذلك جيدا . . ربما كانوا على استعداد الآن لاحتمال حماقاتك ولا مبالاتك . . لكن يوما ما سيسأمون هم أيضا منك . . وساعتها ستجد نفسك وحيدا مثل الكلب! أفهمت؟ وحيدا مثل الكلب!

ـ هذا ما تقولين! أنت التى ستكونين وحدك . . كم أنت شرسة! اسمعى شيئا واحدا: توقفى عن محاكمتى . . ليس لك الحق فى قول هذه الأشياء! أفعل ما يحلو لى ولو لم يَرض الآخرون عن تصرفاتى فتلك مشكلتهم هم! لو أن «محمد» لا يريد أن أبقى فى بيته فليقل لى ذلك!

ـ لم أقل هذا أبدا يا إبراهيم! إنك تبالغ الآن! فيما يخصنى أنت يمكنك البقاء هنا مدى الحياة . .

ـ لو استمرت هذه المخبولة . . لن أبقى هنا دقيقة واحدة!

ـ لا يا عزيزى . . أنا التى سترحل الآن! اتركونى لحالى! لا يلمسنى أحد! حتى أنت يا جهاد! لا تقترب منى! سأرحل الآن إلى الأبد! هكذا! أين حقيبتى؟ أين أشيائى؟ والآن . . كل شىء بداخلها . .

ـ ريهام . . ماذا تفعلين؟

ـ رامى . . لا تتدخل . . اتركنى!

ـ ريهام . . توقفى الآن! لن تذهبى إلى أى مكان . . لأن . .

ـ جهاد . . لم أطلب منك شيئا! ابق هنا مع أصحابك واتركني لحالي!
حسنا . . والآن بما أن كل شيء جاهز سأرحل الآن .

ـ ريهام . . كفى! كفى جميعا ولنتحدث بهدوء .

ـ نعم، رامي على حق . . ريهام . . من فضلك . .

ـ هيا . . هيا . . كفى . . تعالى هنا . .

ـ لا تقتربوا مني! أفسحوا! يكفى هذا! سيكون صديقكم إبراهيم مرتاحا الآن!

ـ ريهام . . لم أقصد . .

ـ لا يا إبراهيم . . بل هذا ما قصدته تماما! سترحل المخبولة الآن!

ـ ريهام!

ـ وداعا يا جماعة . . خذوا بالكم من أنفسكم!

ـ تبا لك يا إبراهيم أرأيت ما فعلت؟ لقد . . لقد ذَهَبَتْ! جهاد . . ماذا تفعل؟

ـ أتظنني تاركا أختي وحدها يا محمد؟ أتظنني أتركها ترحل هكذا؟

ـ لا . . لكن يمكنك إقناعها بالبقاء!

ـ أختي عنيدة ومتكبرة . . حين تقرر شيئا تفعله! كل ما أستطيع عمله هو اللحاق بها . . أين ساعتي؟

ـ جهاد . . لا أحسبك تشجع نزواتها!

ـ ليست بنزوة يا رامي! لقد قلتم لها كلاما مسيئا! إبراهيم شتمها وأهانها!

ـ لماذا . . وهل كانت تصرفاتها مقبولة؟ ربما!

ـ إبراهيم . . لم تكن هي التي قضت الليلة خارج البيت دون أن تخطر أحدا! وفي الظروف التي نعيش فيها . . والصبية الذين يخرجون لشراء بعض الاحتياجات ولا يعودون إلى البيت!

ـ آه . . إذن الخطأ خطئي! تريدون أن تقولوا أن . .

ـ إبراهيم . . اسكت الآن! جهاد . . ألا يمكنك محاولة . .

ـ لا يا محمد . . لا فائدة. سأذهب الآن. خذوا بالكم من أنفسكم. يجب أن أسرع . . يعلم الله أين ذهبت ريهام . .

خرج جهاد أيضا وصرة ثيابه على كتفه . .

رحل على عجل . .

ولحظة أن خطا خارجا أخذ يعدو على الطريق الضيق حتى رأى أخته . .

نادى عليها . . هاتفا باسمها . . التفتت بالكاد . . دون أن تتوقف عن السير . . ونظرت إليه . .

ثم التفتت ثانية واستمرت في السير . . لكن أبطأ من ذي قبل . .

كانت تلك طريقتها في أن تقول له إنها تنتظره . .

في البيت لم يعد أحد يصرخ . .

صمت غير مألوف . .

صمت حزين . .

كانت عينا إبراهيم منكستين بالأرض . .

أما محمد الذى كان يمشى يمينا ويسارا . . ينقل الأغراض . . يَعْدُل اللوحات . . لم يكن عنده شىء يعمله . . لم يكن يَدْر ماذا يقول . .

لم يدر بماذا يفكر . .

لذلك فضل أن يشغل يديه بفعل شىء . .

رامى كان يتابعه دون أن يعرف ما كان يجب فعله . .

هل يبكى؟ . .

أم يضحك؟ . .

لم يعد أحد يتحرك . .

ولما لم يجد محمد أى شىء آخر ليفعله . .

جلس على أريكة وظل صامتا . . ينظر حوله . .

ثم رفع إبراهيم عينيه وسأل . . بصوت خفيض مبحوح . . والندم فى عينيه . .

سأل فقط . .

أتعتقدون أنها ستعود؟

هذا ما سأل . . أتعتقدون أنها ستعود؟

ولم يَدر أحد بما يجيب . .

لأنهم كانوا يأملون ذلك . . يأملونه بحرارة . .

لكن ما من أحد استطاع أن يقول ذلك . .

كان من المؤكد أنه إذا لم يعد جهاد وريهام . .

سيتركان فراغا يصعب سده . .

وكان الوضع سيتدهور أكثر . .

لو أمكن ذلك . .

كانت تلك نهاية شيء ما . . كانت تلك نهاية شيء ما . .

أولا نضال . . ثم ريهام وجهاد . .

ربما جاء الدور على إبراهيم!

وفى تلك اللحظة سأله رامى بسخط وفضول . .

سأل إبراهيم أين ذهبت؟!

و كانت الإجابة كما توقعها بالضبط . .

كنت أتسكع . . هكذا . . أتسكع . .

لأجد نفسى قليلا . .

لأفكر . .

لأتأمل . .

لأؤذى نفسى . .

سأله محمد . .

أفعلتها عمدا؟ . . لا يمكن! قل لى الحقيقة يا إبراهيم . . أفعلتها عمدا؟

فجأة فهم . . فجأة عرف . .

أحس بحزن عظيم . .

لهذا الفتى . .

أفعلتها عمدا؟

وأجاب إبراهيم . .

نعم .

فى تلك الليلة لم ينم إبراهيم . .

لم يكف عن التقلب فى فراشه . .

عن تغيير وضع جسمه بلا هوادة . .

ثم نفض عنه الأغطية . .

ونهض ماشيا حافى القدمين على الأرضية الباردة . .

خرج من الحجرة التى كان ينام فيها حتى الليلة السابقة مع جهاد . .

وذهب إلى المطبخ . .

صَب لنفسه كوبا من الماء البارد . .

روى حلقه الجاف وظل برهة مثبتا نظره فى الفراغ . .

ألتلك الدرجة تخاف أن يحبك أحد؟

ألتلك الدرجة تخاف أن يحبك أحد؟

تَفَحص يديه . .

أظافره المقضومة . . أصابعه الطويلة والرشيقة . .

مثل أصابع أمه . .

على الأقل كما كان أبوه يقول دائما . .

ثم نكس رأسه . . وأسندها على طاولة المطبخ . .

ممسكا بها بين يديه . .

وها هو . . كان لا يزال قادرا على تدمير كل شىء . .

تدمير كل شىء . .

وماذا يهم إنْ كره نفسه . .

كل مرة أكثر!

المشكلة هى أنه قد انتهى بدب الخلاف فى المجموعة . .

وحطم الشىء الوحيد الجميل الذى نجح فى بنائه فى حياته . .

الصداقة . .

الصداقة . .

كان ذلك يبدو عبثيا . . لكن فى الحرب . . لكن هنا . .

بلا والدين . . بلا أسرة . .

بلا سَند . . بلا شىء صلب وأكيد . .

الشيء الوحيد الذى بقى له . .

أهم شيء . .

كانت الصداقة . .

فكر إبراهيم . . إنهم يرحلون جميعا . .

نضال رحل . . ريهام وجهاد رحلا . . سأظل وحيدا . .

بعد قليل سيسألنى محمد الرحيل عن بيته . .

ما الذى أصابنى؟! آه . . تبا لى . . ما الذى أصابنى؟!

لأن الخوف كان شديدا جدا . . الخوف من أن يُحِب أحدا . .

أن يُحِب أحدا بشدة . .

الخوف من الإحساس بأن ارتباطا قويا . .

لا يمكن فسخه . .

مع شخص . .

قد ينشأ . .

الخوف من التغلغل فى قلب شخص آخر . .

كل ذلك . .

يبدو الحب سهلا . . يبدو الحب سهلا . .

لكن الأسهل منه أن تكره . .

الكراهية إحساس لا سند له . . لا يحتاج الكثير . .

لكن إبراهيم لم ينجح فى أن يُحِب . .

أن يُحَب . .

يُحِب . .

أم يُحَب؟

ربما ليس ذلك الشيء نفسه!

ربما ليس ذلك الشيء نفسه!

شعر بدمعة تجرى على خده ببطء . . تولد وتموت فى الوقت نفسه . .

الذى يغلق فيه عينيه . .

إحساسه بالحنين إلى نضال . .

قلب له معدته . .

أو قلبه!

الآن صار لا يميز بين الأشياء . . لا يتعامل إلا مع العذاب فى تلك اللحظة . .

ريهام . .

كانت غالية جدا عليه فى الواقع . .

أحبها كأخت . .

وتسببت له فى خوف رهيب . .

رد فعلها . .

حقيقة أنها كانت قلقة لتلك الدرجة . .

حقيقة أنها خافت هكذا عليه . .

تذكر أنها . . وسط الصياح والشتائم . .

قالت له إنها بكت طوال الليل . .

وذلك . . الشيء المنافى للعقل . . أسعد إبراهيم . .

ذلك الشيء آلَمَ إبراهيم . .

وأسعده فى الوقت نفسه . .

الخوف من الدخول إلى قلب شخص ما . .

والفرحة . .

لو كان قد مات . .

كانت ستبكى عليه . .

هى مثل الآخرين أيضا . .

لم يحىَ هباء . .

وكان شخصا مهما فى حياة خمسة أشخاص طيبين على الأقل . .

ألم يكن ذلك يعنى شيئا؟ . .

ارتسمت ابتسامة على وجه إبراهيم حين تذكر الأوقات . .

التى أظهرت فيها ريهام حبا . . شبه أمومى نحوه . .

أحس أنه مسكين وقاسٍ . .

تصرفه على ذلك النحو قطع عنه فرصة أن يكون محبوبا . .

من ريهام . .

وربما من الآخرين . .

أنا بارع جدا فى تدمير كل شىء . .

بشكل غريب . .

بارع . .

فى الصباح التالى خرج رامى مبكرا للذهاب إلى المستشفى . .

عوضا عن ذلك . . ظل محمد بالبيت لترتيبه قليلا . . ثم قال إنه سيذهب ليرى إن كانوا فى حاجة إليه بالمستشفى . . فسأله إبراهيم إن كان يمكنه أيضا عمل أى شىء بالمستشفى . .

نظر إليه محمد بنفور . . دون أن يقصد ذلك . . وقال له لا .

بلع إبراهيم ذلك بصعوبة . . لكنه جاهد ألا يبدو عليه التأثر . . وأجاب أنه فى هذه الحالة سيذهب للبحث عن عمل بالبلدة . .

بعد أن خرج محمد . . استأذن إبراهيم وخرج هو الآخر . .

تجول قليلا على غير هدى أولا ثم . .

توجه نحو مجموعة المَحال الوحيدة فى المنطقة كلها . .

بالقرب من المسجد الذى كان يرتاده للصلاة رأى أنه فى إحدى الحقول الخالية والمهجورة عادة نُصبت خيام للاجئين . .

تساءل . . تُرى أى القرى استولوا عليها هذه المرة . .

توقف شاردا ينظر . . ثم قال لنفسه إنه ربما كانت هناك حاجة إليه . .

اقترب بهدوء . . مترددا بعض الشيء . .

ورأى على الفور سرائر المعسكر الخشبية الخشنة ذات الملاءات المتسخة . .

أطفال . . شيوخ . . نساء . .

جرحى . . دامين . . محتضرين . .

باكين . . حزانى . . منهارين . .

لكنهم جميعا فى حاجة للمساعدة . .

فور وصوله اقترب منه فتى صغير . . قال له :

نحن بحاجة للمساعدة . .

أين أقرب مستشفى؟

وأجابه إبراهيم بأن المستشفى ليست قريبة ، لكن هناك شاحنة عند البيت ويمكنه إحضارها لنقل الجرحى . .

قال له الولد إنهم جميعا ممتنون إليه . . ممتنون للغاية . .

تابعه إبراهيم بفضول . . كان فتى طويلا . . متوسط البنية . . بشرته فاتحة . . عيناه خضراوان حادتان بشكل متفرد . . شعره أسود كالأبنوس . . أشعث . . شفتاه صغيرتان مرسومتان بدقة . . فى الواقع كانت ملامحه ناعمة بعض الشيء ، لكنه كان مفعما بالرجولة . .

كانت تركيبته غاية فى التباين . . كان أسلوبه فى التصرف . . حديثه . . يبدو غاية فى الشجاعة . . رغم صغر سنه . . لكن عينيه المرسومتين كلوزتين وبشرته الرقيقة ، تعطى انطباعا بأن له هيئة أنثوية .

قال إبراهيم إنه سيعود بسرعة . . جرى إلى البيت حيث إنه كان يعرف أن محمدا قد ترك شاحنته فى ذلك اليوم . . واتجه فور وصوله إلى حجرة محمد . . فتح الأدراج . . فتش فى الجيوب . . رفع حتى المراتب . . بحثا عن المفاتيح . . أخيرا وجدها داخل زهرية بالصالة .

جرى خارجا وقفز إلى الشاحنة بقليل من العناء .

لم يكن قد سبق له قيادة شاحنة . . لكن فى تلك اللحظة لم يَعن له ذلك الكثير . .

لم يكن ذلك بالأمر الصعب . . أليس كذلك؟

أدار مفتاح التشغيل وضغط على دواسة البنزين . .

وبقدر ما كان متعجلا كاد أن يُضيع كل شىء . .

فالواقع أن الشاحنة قد قفزت إلى الأمام . .

فرفع قدمه عن الدواسة وأخذ نفسا عميقا . .

لما أعاد المحاولة كان أكثر حرصا . . وفى تلك المرة تمكن من السيطرة على المحرك . .

سار للخلف وخرج من الفناء . . ثم بدأ فى القيادة كما لم يفعل من قبل . . بِحرص مفرط . .

لأنه فى تلك اللحظة كان يشعر بأهميته . .

كان قادرا على مساعدة الناس . .

كان قادرا على مساعدة الناس الذين يعانون مثلما عانى . .

وكانت تلك هى الفرصة التى منحه الله إياها بعد طول انتظار . .

لما عاد إلى المعسكر ضغط على الفرامل وأوقف المحرك . .

وأدرك أن السيطرة على الشاحنة لم تكن بالصعوبة التى توقعها . .

بل بالعكس . . فبتعوده عليها بدت أكثر سهولة من قيادة سيارة صغيرة . .

فور نزوله سارع الفتى للقائه . .

قال له . . أسْرِع . . أسرع . .

بسرعة وبرفق تعاونا على حمل الجرحى . . والموتى . . للأسف كان هناك بعضهم . . وكان ذلك فظيعا . . تلك العيون المحدقة فى الفراغ . . الجاحظة . . تلك الوجوه الشاحبة . . أراد إبراهيم أن يغلقها . . تلك العيون . . كما لو كان يريد إراحة نفوس هؤلاء الناس . . لكنهم كانوا كثيرين . . كثيرين . . كان يستحيل غلق كل العيون . .

هَمَّا مسرعين . . وأحس إبراهيم بقلبه يعتصره الألم عندما سمع بكاء الأطفال . .

بعضهم كان يبكى ؛ لأن أرجلهم أو أذرعهم . . أو أيديهم . . كانت شبه مفصولة عن أجسادهم . .

والآخرون رأوا آبَاءَهُمْ يُرفعون إلى الشاحنة . . أمّا هُم فكان يجب أن يبقوا هناك . . كان يجب أن يبقوا هناك . .

قاد إبراهيم بسرعة محاولا تَذَكُّر الطريق إلى المستشفى . .

جلس الشاب إلى جواره وقال له :

أختى هناك بالخلف . .

أرجوك أنقذها . .

أرجوك أنقذها . .

شعر إبراهيم بالألم يعتصر قلبه أكثر من ذى قبل . .

لأن الفتى تكلم بحرارة شديدة . . كابحا دموعه . .

أراد أن يبدو قويا صلبا . .

تذكر إبراهيم نفسه قبل بضع سنوات . . لأن الفتى كان يصغره بخمس أو ست سنوات على الأكثر . .

تذكر نفسه قبل بضع سنوات . .

الشىء الوحيد الراسخ فى ذهنه . .

كانت جملة أبيه الأزلية . . أن يكون رجلا . . لم يَقُلْها أبوه حتى تصير له وسواسا . . ولم يقلها ليفرض عليه مسئوليات لم يكن له طاقة بها . .

لكنها انتهت بأن تحولت إلى وسواس . . وكان هو فى سبيله إلى الجنون . .

تذكر نفسه فى مثل هذه السن . .

أدرك أنه كان محظوظا . .

أن يقابل أناسا أحبوه . .

وصلى أيضا لأجل أن يجد هذا الرجل الصغير . . إنسانا يحبه ويساعده فى مواجهة حرب كبيرة جدا . .

كبيرة جدا عليه .

أخيرا نجح فى الوصول إلى المستشفى . . سارع نحوه ممرضون فى الحال . . ونُقل المصابون أولا . .

ثم جاء دور الموتى . .

جرى إبراهيم إلى الداخل وبحث عن الحجرة التى حملهم إليها محمد فى المرة الأولى . . دخل ووجد محمد ورامى . .

سألاه فى الحال :

ماذا أتى بك إلى هنا؟

فشرح لهما ما حدث . .

خرج الاثنان فورا ليساعدوا ـ هم ـ أيضا . .

عندما وجد الفتى سأله :

أين أختك؟

فقاده إلى مكان أشبه بغرفة الانتظار كُدس فيه المصابون . . بعضهم على الأرض . . والبعض الآخر على أسِرّة صغيرة . .

أخذه الولد إلى أحد الأسرة وقال :

هذه أختى . .

اسمها أشجان . .

أشجان كانت تنزف بشدة وتضع يدا على قلبها . .

أدرك إبراهيم أن أحدا لن يتمكن من إنقاذها . . على الأرجح

كانت نفس إصابة إنجى . .

لما التفتت الفتاة رأى إبراهيم وجهها وشعر بوخزة فى قلبه . .

رأى عينين خضراوين مماثلتين حتى فى شكلهما لعينى أخيها . .

رأى لون البشرة الرائع . .

الشفتين الرقيقتين والمرسومتين بدقة . .

الوجه البيضاوى والبشرة الناعمة . .

كان ذلك واضحا . . لم يكن هناك حاجة للمس . . كانت البشرة ناعمة . .

بشرة طفل . . كالحرير الوردى . .

بشرة ناعمة ملوثة بالدم . .

واليدان ذواتا الأصابع الطويلة الرفيعة كانتا تلتمسان يدى الأخ . .

لبى الفتى النداء فى الحال . .

اقترب منها وقال :

سنتخطى الأزمة يا أشجان . . سنتخطى الأزمة . .

دخل رامى فى عجالة . . اتجه نحو إبراهيم ونظر إلى الفتاة . .

قال إنها فى حالة خطرة جدا . . هذا ما قال . .

وسأل إبراهيم والفتى أن يساعداه فى حملها إلى الخارج . . كان يلزم نقلها إلى غرفة العمليات . .

كانت المشكلة أن الممرضين والأطباء مثقلون بالعمل . . عدد كبير من الضحايا وصل من عدة قرى مجاورة . .

كان تقدم العدو مستشعرا بوضوح . .

ضَبَط إبراهيم نفسه يأمل فى نجاة الفتاة الشابة . .

كانت جميلة جدا . . رقيقة جدا . . وأثناء رفعها بمساعدة الاثنين الآخرين شعر بنحافتها ورشاقتها . .

ضبط نفسه يدعو لها بالنجاة . .

لبعض الوقت أغلق عينيه تماما . .

ثم فتحهما . .

كانوا قد وصلوا إلى غرفة العمليات . . مددها على مائدة العمليات بمساعدة رامى . .

ثم . .

خرج من الغرفة ونظر إلى الفتى . . وسأله عن اسمه . .

أحمد . . كان اسمه أحمد . .

ولما نظر إليه إبراهيم أحس بعذاب هائل . .

نفس العذاب الذى جربه من قبل . .

وقال له . . قال له :

سوف تنجو يا أحمد . . سوف تنجو . .

كان يعرف أنه يكذب . .

ماتت أشجان فى غضون ساعات . . أثناء العملية . .

خرج طبيب من غرفة العمليات . . متعب الوجه . . تحيط عينيه هالتان سوداوان . . بطىء الخطوة . . حزين النظرة . .

فَهِم أحمد . . فهم لأنه اضطرب على الفور . .

سأله . . سأله فى الحال . .

ـ خيرا؟ خيرا . . هل أشجان بخير؟ متى يمكننى الدخول لرؤيتها؟ متى يمكننا العودة إلى البيت؟ هل سألتك عنى؟

ـ أحمد . .

ـ هل أستطيع الدخول إذًا؟ هى بخير أليس كذلك؟ هل أستطيع . .

ـ اسمع يا أحمد . .

ـ لا بد أن أرى أشجان ، الآن ، اتركونى أراها ، من فضلكم . .

ـ اسمع يا سيدى . . أنا فى غاية الأسف . . لقد حاولنا أن . .

ـ لا . . لا ! أشجان فى أحسن حال ! لماذا لا تريدوننى أن أراها؟ قالت

لى إنه لن يحدث شىء . . إننا سنظل معا دائما! لا يمكنكم منعى من العودة معها إلى البيت!

ـ أحمد . . لقد انتهى الأمر . . هيا يا أحمد . . أرجوك . . أشجان موجودة الآن فى مكان أفضل لن تتعذب فيه ثانية . . أشجان لم تَتخل عنك يا أحمد . . هيا . .

الدموع . . النحيب . . اليأس . . الألم . .

العجز . .

ضَمّه إبراهيم . . ضمه بقوة . .

تعرفا منذ ساعات قليلة . . لكنه شعر نحوه برغبة فطرية فى حمايته وحنان لم يشعر به نحو أحد من قبل . . ضمه بكل قوة يمتلكها . . ربّت على رأسه . . بينما استسلم أحمد للنشيج وعانقه بنفس القوة . .

ضمه إبراهيم . . ضمه . .

لأنه كان يعرف كم اشتاق لحضن كهذا عندما كان فى مثل عمر أحمد!

لم يكن أحمد يرد مغادرة المستشفى . . كان شديد التعلق بأخته وهو فى سن المراهقةَ . .

كان يعيش معها هى وزوجها . .

الذى مات هو الآخر أثناء احتلال بَلدتهم . . كانا يعيشان وحدهما منذ طفولتهما . .

صار أحمد بلا مكان يذهب إليه . . ولا أحد يعزيه فى وفاة أشجان . . ولا أحد يشاركه آلامه . .

ولم يتردد إبراهيم لحظة . .

لم يفكر حتى فى استئذان محمد . .

كان قد قرر بالفعل . .

هذا الفتى لم يكن قادرا على العيش وحيدا . .

هذا الفتى وجد أسرة . .

انتظر إبراهيم حتى نام . . ثم حمله إلى الشاحنة بمساعدة رامى . .

قال لصديقه أن يخبر محمدا أنه أخذ الشاحنة ليعود بها إلى البيت . .

وأنه اصطحب معه شابا يافعا . .

لم تعد قيادة الشاحنة تمثل له مشكلة . . رحلتان كانتا كافيتين للتعود عليها . .

قطع البلدة وهو يراقب الطريق بعين وأحمد بالأخرى . .

ثم . . عندما وصل إلى البيت . . حمل أحمد إلى حجرته ومدده على الفراش . .

ثم عاد إلى الصالة وجلس . .

فكر فى أشجان . . فى جمال وجهها . .

فكر فى الأهمية التى كانت لتلك المرأة فى حياة أحمد . .

أحس بنوع من الكآبة الحادة والعميقة تطغى على قلبه . . وعقله . .

حاول التحرر منها . . حاول التجرد من مشاعره . .

لأن المشاعر تقلب كيانك . . تقلب كيانك . .

لكنه لم يستطع . .

فكر في أشجان وفي أحمد وفي ريهام التي بكت من أجله ذات ليلة . .

والتي كانت الآن ـ الله أعلم أين ـ مع أخ تائه وقليل الحيلة . .

لم يشعر فقط بالكآبة . . ولكنه شعر أيضا بالغم والإحساس بالذنب . .

أمضى طيلة فترة ما بعد الظهر في التفكير . . في النوم . . وقراءة القرآن الكريم . .

دون حتى القدرة على الخروج . .

ثم أخيرا حضر رامي ومحمد . .

أحمد كان لا يزال نائما . .

عندما وصل أصدقاؤه أعد الشاي وظل يتحدث عن أحمد . .

شرح إبراهيم ما حدث له منذ خروجه من البيت . .

تكلم بلا انقطاع لمدة نصف ساعة . . ثم سكت . . متعبا حزينا . .

نظر إلى محمد في عينيه . . سأله إن كان يمكن لأحمد البقاء . .

أجاب محمد أن الفتى يمكنه البقاء . . وللمدة التى يريدها أيضا . . على العكس فإن من واجبهم أن يقدموا له المساعدة . .

أحس إبراهيم بتعاظم تقديره لمحمد . . وضع يدا على كتفه وشد عليه بحب . .

لكن فجأة سمعوا صوت أحمد مشدودا ومنزعجا . .

التفتوا بسرعة ورأوا الولد واقفا على عتبة الصالة . .

قائلا لهم . . لا . . شكرا . . إنه لن يبقى عندهم . . إنه يجب أن يذهب لأخته . .

أشجان كانت تنتظره . .

أجلسه إبراهيم . . كَلمه . . التمس عون رامى ومحمد . . اللذين أخذا يكلمان أحمد بلطف . .

أختك لم تعد . . لم تعد هنا . .

يجب أن تقبل الأمر . . يجب أن تقبله . . نعرف أنه أمر قاس لكنك يجب أن تقبله . .

إبراهيم كان لا يزال يعتقد إلى وقت قريب أنه لن يشعر أبدا بألم أقوى من الألم الذى أحس به من قبل . .

لكن فى تلك اللحظة . . إحساسه بالاضطراب والغضب . . بالألم والحنين . .

تنامى . .

ما الألم الذى سيسببونه لنا ثانية؟

ما الذى بقى ليدمروه ؟!

من الذى بقى ليقتلوه؟!

متى سينتهى كل ذلك؟

سيأتى يوم لن يبقى فيه شىء للتدمير . .

لن يبقى فيه إنسان للقتل . .

وساعتها لا شك أنهم سيتوقفون!

وساعتها لا شك سينتهى كل ذلك .

ـ هل ماتت حقا يا إبراهيم؟ هل حقا انتهى كل شىء؟

هل انتهى يا إبراهيم؟ . .

ـ نعم يا أحمد . . بشكل ما . . انتهى .

فى ذلك المساء قرأ إبراهيم القرآن الكريم بصوت عال . . بينما بقى محمد وأحمد يخفضان رأسيهما . . مستغرقين فى الدعاء . . ينصتان إلى الآيات التى يُرَتلها إبراهيم بصوته العميق .

رامى كان يتابعهم . . كان يصلى فى ركنه . . لم يكن مُهما أنه

يعتنق ديانة مختلفة . . لم يكن مهما أن كتابه المقدس لا يقول نفس الأشياء بالضبط التى فى القرآن الكريم . . فى تلك اللحظة لم يكونوا كلهم سوى جماعة من المصلين الذين يلتمسون معونة ربهم . . الإله الواحد . . يطلبون إليه أن ينتهى كل هذا الألم . . يطلبون السلام .

سمعوا ضجة بمدخل البيت . . توقف إبراهيم . . نهض محمد على قدميه واثبا . . لكن إبراهيم كان أكثر خفة منه وانطلق نحو الباب .

لم يكد يصل إلى المدخل حتى وقف جامدا . .

ـ ريهام !

ـ إبراهيم !

ـ ريهام ! جهاد ! لقد عدتما ! ريهام تعالى هنا !

ـ هه . . مهلا . . مهلا ! أنا . . نحن . .

ـ آسف . . آسف . . آسف ! الأربع وعشرون ساعة الماضية كانت الأفظع فى حياتى ! ريهام . . أنا المخطئ . . أنا . . آسف . . أرجوك . . سامحينى . . أسيمكنك مسامحتى؟ ريهام . . أنا . . بدونكَ . . بدونكما لا أستطيع الاستمرار فى الحياة . .

ـ إبراهيم . . أسامحك بالطبع . . بالطبع أ . . وأنا التى جئت لأطلب منك السماح . . أعنى أ . . أنت على حق . . من حقك التصرف كما يحلو لك وأنا لست سوى امرأة شرسة . . ليس لى الحق فى أن أملى عليك ما تفعله وما لا تفعله . . أنا آسفة . .

ـ لا لا لا ! لك كل الحق يا ريهام فى توبيخى وفى قول ما يجب علىّ

عمله . . اسمعيني . . أنا المخطىء . . هذا كل ما في الأمر! لن أفعلها ثانية . . أبدا أبدا . . أعدك بذلك! قولي لي إنك ستقلقين عليّ دائما وأنك ستوبخينني لو عدت متأخرا إلى البيت دون إخطاركم!

ـ لا . . بل أريد الاعتذار عن رفع صوتي و . .

ـ الآن . . لن تعودا للعراك ثانية، على من كان مخطئا ومن كان على حق!

ـ محمد! تعال هنا . . لم نرحل سوى يوم، لكنى أشعر كما لو أني لم أرك منذ شهر . . ورامي . . أين هو؟

ـ أهلا يا رامي . ما هذا . . أحَدث شيء أثناء غيابنا؟

ـ حسنا . . نعم . هذا أحمد . لقد قابلته بالمخيم القريب . . لقد أتوا من قرية أُحتلت .

ـ أهلا! أنا ريهام . . وهذا أخي جهاد . جهاد . . تعال . . قَدم نفسك!

ـ أهلا . . أهلا يا أحمد .

ـ أهلا . . هل أنتما صديقان لإبراهيم؟

ـ نعم . . و لرامي ومحمد . لكن كم تبلغ من العمر؟

ـ ثمانية عشر عاما .

ـ كم أنت صغير! . . حسنا . . كان ينقصنا شخص شاب هنا . . أعني أننا كلنا في العشرينيات من عمرنا لكننا مملون بشدة . .

ـ لكن يا ريهام . . أين ذهبتما؟

ـ آه . . أخذنا نتسكع قليلا . . قضينا الليلة فى مخيم للاجئين . . شىء عجيب . . الناس يموتون . . الناس يعانون . . لكنهم لا يترددون أبدا فى مساعدة الآخرين . . شعرت بفخر عظيم بكونى فلسطينية . . لكنى كنت فى حاجة إلى أن أكظم غضبى . . فقد دفعنى إبراهيم ـ هذه المرة ـ بحق إلى قمة الغضب .

ـ حسنا يا إبراهيم . . لا يمكنك أن تتخيل كيف كان يومنا؟! لقد قضت اليوم بطوله تشتمك . . وأخيرا جلست على الأرض وأخذت تبكى .

ـ أُسكت يا جهاد!

ـ ما بك يا ريهام . . لا أحسبك تخجلين من الاعتراف بأنك كنت تبكين ، وأنك كنت تقولين أنتم عالم من . . .

ـ تعال هنا أيها الشقى!

ـ آه . . كم افتقدنا صراخك يا ريهام . .

ـ لا . . لكن ماذا تريد قوله يا رامى . . من فضلك؟

ـ لا شىء . . لا شىء . . أليس من الأفضل أن تعدين شيئا نأكله؟

ـ هأنا ما كدت أعود إلى البيت ، فإذا بكم تعاملوننى كخادمة ثانية . أتساءل إن كنت قد أحسنت عملا بالعدول عن قرارى!!

ضحكوا . . ذهبت ريهام إلى الحجرة التى أخلاها لها محمد حين استقرت عنده . . رتبت أغراضها . . وعادت إلى المطبخ لتجهيز العشاء .

جلس جهاد مع سائر الرجال وبعد بضع دقائق من الحديث عادوا إلى قراءة القرآن.

وبعد أن فرغوا من ذلك مباشرة.. أخذ جهاد إبراهيم جانبا وسأله عن أحمد.. فحكى له إبراهيم قصته.

كانت تلك بداية مرحلة سعيدة. اندمج أحمد بسرعة مع المجموعة وانتهى به الأمر أن صار المهرج الذى يسخر من الكل.. كان يسخر من ريهام لأقل شىء ويدبر المقالب مع محمد.

وجد إبراهيم عملا فى جزارة واستعاد بشاشته.. كان يخرج صباحا ويعود مساء.. كانوا يأكلون سويا، ثم يتناولون الشاى أثناء تبادل الحكايات حول ما فعلوه طوال اليوم.

بدأ جهاد فى الذهاب إلى المستشفى مع رامى ومحمد.. لكن ريهام لم تكن وحدها بالمنزل؛ لأن أحمد كان يجلس معها.

لم يعد أحد يتشاجر مع الآخر.. وبدأت الجراح تلتئم..

كان أحمد يفكر فى أشجان كل يوم.. وأحيانا كان صوته يتكدر ووجهه يبدو حزينا.. وعيناه تفقدان بريقهما..

كانت تلك الحالات تدوم دقيقة أو يوما كاملا..

إبراهيم كان يعلم أن تلك فقط مسألة وقت..

كان يجاهد فى طرح مواضيع تجذب اهتمام أحمد ليشغله عن التفكير فى الماضى..

وعن إيلام نفسه . .

لكن كان يبدو أنه لا الإيمان ولا العمل ولا الحب كانوا كافين . .

فَهِم إبراهيم أن تلك كانت سمة الجيل الجديد . .

هكذا كانوا يكبرون . . مغمورين بالألم وبالغضب . . وأنه كان من النفاق والظلم انتقادهم لرميهم للحجارة أو سعيهم للموت حتى يصيروا شهداء . . كان ذلك ظلما كبيرا . .

فكيف يمكن ـ لإبراهيم ـ أن يأخذ على أحمد يوما لجوءه للعنف الذى كان ليستخدمه ـ بالتأكيد ـ ذات يوم ضد الإسرائيليين؟

سَهْلٌ جدا انتقاد الذين يستخدمون العنف . .

مع نسيان أنهم كانوا من قبل ضحايا لأشخاص مارسوا عليهم العنف . .

وأنهم بدورهم يستخدمون العنف لشفاء غليل الغضب المتفجر بداخلهم بفعل العنف الواقع عليهم . .

إنها دائرة العنف . .

التى يصعب وقفها . .

ربما يستحيل وقفها . .

لكن هل هناك حقا رغبة فى وقفها؟

هل هناك اهتمام بوقفها؟

تساءل إبراهيم كثيرا ، وكان استنتاجه الدائم هو أن فخ العنف . .

كان مناسبا لمصالح الكثير من الناس . .

لدرجة يصعب معها وقفه يوما .

أحيانا حين كانت كراهيته للعدو تزداد حدة لدرجة عنيفة كان يتناول المصحف بين يديه ويتلو على أصدقائه الآيات الكريمة :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ .

حررهم الله وأنقذهم وهكذا يشكرونه! بقتل أبنائه! إنهم حقا ظالمون!

فى تلك الأوقات . . كان إبراهيم يرفع صوته . . وعيناه تلمعان . . وكان يترك نفسه وتأخذه الحمية . . ولا يدرك إلى أى درجة كان يشبه أباه ساعتها . . يكاد يكون مثله تماما . . ولا يلاحظ حتى ارتعاش صوته . .

كان ذلك يخيف الآخرين بعض الشيء . . لكنهم كانوا ينصتون إليه بانبهار . .

كان لذاك الصوت قوة مغناطيسية تجذب الجميع .

الحرب كانت مستمرة . .

كان ذلك فى ١٩٩٦ .

الاحتلال اليهودى كان مستمرا و . .

فى أبريل . . فى لبنان . . وقعت مذبحة للمدنيين فى قانا .

قرأ إبراهيم فى الصحف أن الضحايا الفلسطينيين يتزايدون . .

كما أن المستوطنات اليهودية تتسع . .

أن كيلومترات وكيلومترات من الطرق كانت تنشأ فقط لاستخدام المستوطنين والجيش . .

وأن آلاف الهكتارات من أراضى الضفة الغربية كانت إسرائيل تنتزع ملكيتها .

ذات يوم وصل أحمد إلى البيت مغتاظا ساخطا . . يقول . .

إنهم محرومون من الماء دائما . . وبالإكراه . .

قرأ أن فى غزة كل فرد من الستة آلاف وخمسمائة يهودى بالمستوطنات يستهلك سبعة أضعاف الماء الذى يستهلكه كل واحد من المليون ومائتى ألف فلسطينى .

ومع ذلك بدأ الشباب يقللون من التفكير فى الحرب وفى الضحايا كما لو كانوا يسعون لحماية أنفسهم من الألم . . وأخذوا يُركزون على حياتهم الشخصية .

بدأ إبراهيم فى الكتابة . . لم يعرف بالضبط هدفه من ذلك ولم تكن فى ذهنه أفكار واضحة . . لكن بدا له أن المهم هو التعبير عن أحاسيسه ومتاعبه اليومية . . حتى يتفادى أن يكون وقحا وعدوانيا مع الآخرين .

كان يفتقد نضالا بشدة . . حضوره القوى الرصين . . صدقه . . خبرته . . وحبه الثابت غير المشروط الذى غمره به دائما وهو يعامله كأخ ويشاركه كل لحظة . . كل موقف . . كل فكرة .

عثر أحمد فى ريهام على شىء من أخته ، وصارا مرتبطين للغاية . . وصار يتقبل اللوم والنصح منها بتواضع أكبر .

فى شهر رمضان من ذلك العام صاموا كلهم معا . . وأراد رامى أن يصوم معهم مع أنه لم يكن مسلما .

كانت فترة جميلة جدا . . كانوا يقضون معظم أوقاتهم فى الصلاة . . وقراءة القرآن الكريم . . وفى النقاش بنبرة هادئة دائما .

بدأ أحمد يشعر بتفاؤل أكبر فى الحياة . . ونجح فى استعادة إيمانه بالله الذى بدا عليه أنه فقده فى الأوقات السابقة . .

توقف عن إلقاء اللوم على ما حدث له وعن الاقتناع بأن الإيمان لا يكفى لتخطى المشاكل . .

رأى إبراهيم أن أحمد كان بصدد تطوير أسلوب حياة وفكر خاص به وحده . . وكان فخورا به كما لو كان ابنه مع أنه كان يصغره بسبع سنوات فقط .

كتب إبراهيم فى تلك الفترة :

«بدأت أفكر أن الأوهام هى فى الواقع بديل جيد لمواجهة هذا الموقف . . فنحن نميل أحيانا إلى التعامل بشكل مباشر جدا مع الواقع . . وذلك يجرحنا . . فلا شك أن البحث عن الحقيقة ليس الشىء الأفضل دائما . خاصة أننى فى هذا الوقت أدرك إلى أى درجة يمكن للأحلام والآمال أن تهدئنا . . فالأشخاص الذين يحيطون بى يلجئون إليها كما لو كانت درعا للأمان . لو حاولت للحظة أن أنسى أن وطننا يحتله شعب من المغتصبين . . وأن أبناء شعبى يموتون بإيقاع متسارع لا يرحم . . لو حاولت أن أنسى أن العالم يشاهد ما يحدث لنا دون أن يتحرك . . وأن الناس لم يعودوا يذكروننا . . لو حاولت أن أنسى أن هناك من يسحب الهواء الذى أتنفسه والقلب الذى أحيا

به . . لو حاولت أن أنسى كل هذا لأمكننى القول بأن كل شىء على ما يرام. لقد طورت نوعا غريبا من الاستسلام . . أحاول إخفاءه خوفا من انتشار عدواه بين الآخرين . . وتوقفت عن التفكير فى أننا يمكننا أن نقاتل الأعداء باسم الجهاد. لا شك أننا محكوم علينا بالعذاب إلى الأبد . . لا شك أن قدر شعبنا ألا يكون له أرض . . لا شك أنه لم يكتب فى أى مكان أننا سننتقم للأخطاء التى أُرتكبت فى حقنا . . إذًا فالعزاء الوحيد هو الحياة الآخرة . . الجنة التى سيمنحنا الله وحده إياها . أعترف أنه فى تلك المرحلة تفقد الحرب كل معنى . . وأن الشىء الوحيد الذى يهمنى الآن . . هو كسب منزلة صغيرة بالقرب من الله عز وجل . . مع الشهداء والأطفال والنساء الذين تم قتلهم» .

ـ إبراهيم . .

ـ نعم يا ريهام .

ـ أفتقد نضالا بشدة . . دائما ما أفكر فيه .

ـ أنا أيضا .

ـ هل تعتقد أنه سيعود؟

ـ لا أدرى . . لا أدرى .

بدأ رامى يعود متأخرا بالليل . . كان يخرج من المستشفى، لكنه لم يكن يعود بعدها إلى البيت مباشرة . .

لم يعرف أحد أين كان يذهب بالتحديد . .

ولم يجرؤ أحد على سؤاله . . !

ذات يوم عاد إلى البيت فى منتهى السعادة . . وبَدَّل ملابسه على عجل ثم . .

خرج من جديد قائلا ألا ينتظره أحد على العشاء . .

صار غريب الأطوار . .

كان متقلب المزاج ما بين فترات مرح غير مفهوم سببه . .

وأوقات أخرى من حزن وكآبة . .

كانوا كلهم يتوقفون عن الكلام فور ظهوره بالمكان . .

أو يبدو عليهم الاضطراب والحيرة . .

كان يبدو إنسانا آخر . .

أحيانا كان مرحا ظريفا . . يدبر المقالب ويُسلى المجموعة . .

لكنه كان يتحول أحيانا إلى شخصٍ عبوسٍ لا يطاق متبرم الوجه . .

يعامل من يحاول مخاطبته بعنف وفظاظة . .

ذات مساء قرر إبراهيم بحث أمره مع الآخرين ـ مستغلا غيابه . .

ـ يا أولاد . . أريد أن أتكلم معكم بخصوص رامى . . ألا تلاحظون أنه يتصرف بغرابة؟

ـ رامى! لماذا . . ماذا حدث؟ أنا أراه طبيعيا للغاية!

ـ كفى هزلا يا أحمد. الأمر مهم.

ـ إبراهيم على حق . . الأمر غير محتمل. لابد أن نفهم ما حدث له .

ـ ريهام . . أنا لست من هذا الرأى. أعنى أنها حياته. ليس لأننا نسكن فى نفس البيت أنه من حقنا أن نعرف أين يذهب وماذا يفعل؟! فهو ـ فى النهاية ـ فى الثانية والعشرين من عمره . . لم يعد صغيرا . . أليس كذلك؟

ـ لا يا جهاد . . لا أوافقك. يجب أن نفهم ما يحدث له . . قد يكون شيئا خطرا. هذا واجبنا!

ـ محمد . . إنك تقول هذا لأنك . .

ـ أقول هذا لأنى أعرفه منذ أربعة أعوام! أنا قلق عليه . . هذا كل ما فى الأمر! لا أريد أن أتدخل فى شئونه الخاصة، لكنه كالأخ بالنسبة لى . . بل إنه أخى بالفعل . . نحن كلنا إخوة. أعتقد أنه يجب علينا تحرى ما يحدث له .

ـ حسنا . . أرى أن الغالبية مؤيدة. إذن سأغادر الجزارة مبكرا غدا وسأذهب إلى المستشفى وأنتظر حتى يخرج. إنه عَادة ما ينتهى من العمل فى حوالى الخامسة . . أليس كذلك؟ حسنا . . سأنتظره بالخارج ثم . . حسنا . . ثم . .

ـ ثم ماذا يا إبراهيم؟ لا . . ألا تدرك ما تقول؟ تريد أن تتبعه! ليس هذا من حقك!

ـ كفى يا أحمد. سنفعل ذلك لمصلحته. إذن فأنا . . حسنا سأتبعه

وسأرى إلى أين يذهب . لو اكتشفت أنه يذهب إلى المقهى للعب الشطرنج أو يذهب إلى أحد أصدقائه . . سأعود إلى المجزرة وسينتهى الأمر عند هذا الحد . . ولو كان هناك شىء آخر فى الأمر . . سنرى ماذا سنفعل .

ـ لا وألف لا . . انس ذلك تماما! ألا تدرك أن ما تريد عمله شىء مخزٍ وغير أخلاقى؟ إذا أصررت على ذلك سأضطر إلى . .

ـ ستضطر إلى ماذا؟ ماذا تريد أن تفعل أيها التعيس؟

ـ حسنا . . سأضطر إلى إخبار رامى بما تدبرونه خلف ظهـ . .

ـ يا لك من وضيع! تعال هنا! سأ . . سأقضى عليك، أنا!

ـ النجدة . . امسكه يا محمد! آآآه! إنه يريد قتلى حقا . ريهام أرجوك . . قولى شيئا!

ـ محمد . . اتركنى أذهب حالا!

ـ ماذا تريد أن تفعل؟

ـ أريده أن يأخذ ما يستحق . . سألقنه درسا . .

ـ لن تلقنى شيئا على الإطلاق! لست أبى ولا حتى أخى . . ليس من حقك أن تعلمنى . .

ـ تافه . . ! لست سوى طفل دنىء مدلل! كيف تسمح لنفسك؟ أنا أكبر منك سنا بكثير . . يجب عليك أن تحترمنى! تعال هنا! محمد قلت لك أن تتركنى! اتركنى كى أوسعه ضربا!

ـ محمد أرجوك امسكه جيدا أرجوك!

ـ اعتذر لى! أيها الوقح السافل! اعتذر لى حالا! أقْسِم أنك لن تقل شيئا لرامى. . وإلا والله العظيم سأكسر لك ذرا. .

ـ كفى الآن يا إبراهيم. . إنك حقا تبالغ!

ـ لا تتدخلى يا ريهام. أحمد. . اعتذر لى.

ـ علام أعتذر؟! أنا أقول ما أريد! و. . حسنا. . حسنا. . لا. . أتوسل إليك ألا تضربنى. . حسنا حسنا؟. . لن أقول شيئا لرامى. . سأغلق فمى وسأكون مؤدبا!

ـ همم. . هكذا تكون تربية تافه مثلك. حسنا. . والآن كلنا متفقون وليعد كل واحد إلى عمله. . غدا سنكتشف ما يحدث لرامى.

في اليوم التالى استأذن إبراهيم ساعة من العمل كما قال. . ووقف أمام المستشفى ينتظر خروج رامى، وهو يختبئ جيدا خلف كابينة تليفون. .

خرج رامى فى موعده المعتاد ونظر حوله. .

فغاص إبراهيم خلف الكابينة، وازداد توترا. .

ماذا لو رآه رامى؟

ماذا لو لاحظ وجوده؟

كيف يكون رد فعله؟

سيرحل هو الآخر مثل نضال؟!

أم سيقطع ببساطة علاقة الصداقة الجميلة التى تربطهما؟!

لما رأى رامى يسرع نحو محطة الأتوبيس . . طرح أفكاره جانبا وهم بلحاقه . .

استولت عليه الحيرة، حين فهم أن رامى سيركب الأتوبيس . .

كيف سيتصرف لركوب الأتوبيس هو الآخر دون أن يراه صديقه؟

قرر أن يجازف بالكل، ليربح الكل، وضغط على قبعته الصغيرة فوق رأسه على أمل أن يخفى على الأقل جزءًا من وجهه . .

وتقدم بخطوات بطيئة، بحيث يظل على بعد حوالى عشرة أمتار . .

ولما وصل الأتوبيس . .

انتظر أن يصعد رامى أولا، ثم انطلق كالسهم وصعد هو الآخر . .

ذهب رامى إلى الداخل، وجلس على مقعد بآخر صف . . أما إبراهيم فجلس بالمقدمة . .

مروا بمستوطنة يهودية تنبض بالحياة . . تملؤها محال وحدائق وناس يشترون ويدخلون ويخرجون من المحال . . صبية على الألواح الزلاجة . . عشاق فى المطاعم . . عائلات فى الشوارع. هنا لم تكن الحرب تبدو سوى حادث بعيد . . كلمة بلا وزن . . مشكلة لا تعنى أحدا . .

كان الناس يرتدون ملابس جميلة . . وتبدو عليهم النعمة . .

مال . . صحة . . سلطة . .

كان يصعب تصديق أنه على بعد بضع كيلومترات قليلة هناك قرى فقيرة، حيث بشر يتألمون ويموتون من الجوع والبرد . . بل أسوأ من ذلك . . رميا بالرصاص . .

كان يصعب تصديق أن الحياة الرغدة لهؤلاء الناس يمكنها التعايش مع فقر شعب ممزق بالجراح والآلام . .

كان إبراهيم غارقا فى أفكاره حتى أنه كاد ألا يرى رامى، وهو ينزل فى عُجالة . .

نزل هو أيضا بسرعة، وضغط أكثر على قبعته الصغيرة وأخذ يتابع رامى . .

بدا له سلوكه غريبا . .

كان يراقب كل ركن من أركان الشوارع، كما لو كان يخشى أن يتبعه أحد . . كان يفرك يديه . . ويَحك ذقنه . .

خشى إبراهيم أن يكون رامى قد أحس بأنه يتبعه . . فاستدار ماشيًا فى الاتجاه المعاكس . .

وانعطف نحو الزاوية . . ثم توقف ومد رأسه ليرى إن كان رامى ينظر خلفه . .

لكن رامى اختفى . .

شعر إبراهيم بالهلع يجتاحه . .

وأخذ يلتفت وينظر حوله بجنون فى كل الاتجاهات . .

ثم لمح أخيرا صديقه فى نهاية الشارع . .

فَهَمّ باللحاق به . .

مشى خلفه حوالى مائتى متر . . ثلاثمائة متر . .

ثم دخل رامى محلا . .

أسرع إبراهيم خلفه . .

دخل المحل هو الآخر . .

كان هناك ضوء خافت بالمكان . . وفتيات يرتدين ملابس شبه عارية ، وأولاد يدخنون ويحتسون الخمر . .

نظر إبراهيم حوله بدهشة وفضول . . !

لم يتصور أبدا أنه على بعد كيلومترات من المكان الذى يعيش فيه يوجد مكان يختلف كل الاختلاف عن كل الأماكن التى يرتادها مع أصدقائه . .

ولمجرد رؤيته للمخدرات والخمر والفتيان والفتيات فى كل الاحتمالات الممكنة بنت ـ ولد . . ولد ـ ولد . . بنت ـ بنت . . ولد ـ بنت ـ ولد . . وهلم جر . .

اجتاح إبراهيم شعور بالاحتقار العميق لهؤلاء الشباب ، الذين ضلوا الصراط المستقيم . .

وفقدوا دينهم أيضا بلا شك . .

لكن فى أثناء ذلك كان قد فَقَد رامى . .

نظر حوله ولمحه أخيرا فى مكان أبعد . . كان بصحبة فتاة يهودية . .

طويلة . . نحيفة جدا . . ترتدى جونلة قصيرة جدا وبلوزة ضيقة . . تضع الكثير من مساحيق الزينة . .

شعرها قصير . . أحمر . . واضح أنه مصبوغ ومغطى بمادة مثبتة للشعر . .

انزعج إبراهيم منها . . كانت تلامس رامى بكثير من التبجح . .

لم يصدق أن رامى يمكن أن يتورط مع مثل هذه الفتاة . .

ولما ناولته شيئا ليدخنه . . لابد أنها كانت لفافة مخدر . . خشى أن الصديق الذى كان يعرفه تمام المعرفة . . أو بمعنى أصح الذى ظن أنه يعرفه جيدا . . خشى أن يقبلها منها . .

لكن لحسن الحظ رفض رامى السيجارة بحركة جافة وأمسك بيد البنت وسحبها إلى الباب الخلفى . .

تبعهما إبراهيم خارج المحل . .

وجد نفسه فى شارع مهجور . . والشابان على مقربة منه . .

هَمّ إبراهيم يكور نفسه خلف صندوق للقمامة . .

كان الاثنان يتكلمان بصوت واضح، لكن بلكنة أمريكية . .

جاهد إبراهيم أن يفهم ما يقولان مسترجعا الإنجليزية التى تعلمها بالمدرسة . .

- سارة . . أخيرا أراك . . أتكلم معك . . لو تعرفين كم افتقدتك فى تلك الأيام! كنت أشعر كأنى محبوس فى قفص . أخبرينى . . كيف حالك؟

ـ كالمعتاد يا رامى. متعبة. . محبطة. . مستسلمة. . أحيانا أتساءل كيف تخالط فتاة مثلى؟ أريد أن أقول. . أنت شخص. . جذاب جدا. . لطيف. . ذكى. . عميق. . أما أنا. . فليس عندى أى شىء أضيفه لك. لست سوى طفلة مدللة.

ـ لا. . لا تقولى هذا. . أنت عندك الكثير لتعطيه. . أنت فريدة. . أؤكد لك. . ولهذا أريد أن أقضى باقى حياتى معك.

ـ كيف؟ ماذا تريد أن تقول؟

ـ حسنا. . أنا. . تعرفين أننى لم أعد أحتمل تلك اللقاءات الخفية. . بدأت أشعر بالحاجة لرؤيتك. . معانقتك. . كل يوم. . و. . حسنا. . باختصار. لدى صديق فى خان يونس، وقد عرض علىّ أن أذهب عنده. سيسافر إلى القاهرة وسيترك شقته. . أريد أن تأتى معى.

ـ آتى معك؟ أنا وأنت وحدنا؟

ـ نعم. أريد أن أتزوجك. . وأن تصيرى زوجتى. . وأن يكون لى كل الحق فى العيش معك، ولكن كى نتمكن من ذلك يجب أن نرحل من هنا. فما رأيك؟

ـ أنت مجنون والله! خان يونس. . أنا لا أعرف حتى أين تقع! ثم. . ماذا أقول لأهلى؟! لا يا رامى. . أنا أحبك لكنك الآن تهذى! كيف يمكننا الرحيل من هنا والعيش معا؟ ثم ألست تقيم مع أصحابك؟

ـ نعم. . وأحبهم حبا جما. . لكن ذلك يبدو لى شيئا مؤقتا! يوما

ينسحب واحد . . و بعد ذلك يتشاجر اثنان . . يبدو أن الصداقة لم تعد كافية لإبقائنا متحدين . لابد أنه التوتر . . لابد أنه الخوف . . على أية حال أنا أريد أن أرحل معك . معذرة ، لكنى ظننت أن أهلك متفتحين فكريا . ألا يمكن أن تقولى لهم أنك ستسافرين مع بعض الأصدقاء وحسب؟

ـ آه . . من فضلك! أى أصدقاء؟ رامى إنك تجعلنى فى حيرة . . لكن من أين أتيت بفكرة خان يونس هذه؟ لابد أنك لا تدرك ضخامة ما تقول . تُفجر قنبلة ثم تغضب لأننى لا أوافقك فى الحال . . حاول أن تضع نفسك مكانى!

ـ لماذا . . أتعتقدين أن هذا بالأمر السهل علىّ؟! أنا ـ ببساطة ـ طلبت منك أن نرحل ؛ لأننى لم أعد أحتمل هذا الوضع! أتتخيلين كم سيكون ذلك رائعا! أنا وأنت وحدنا بلا حواجز بلا نظرات حذرة . . بلا قلق . . بلا تخفٍّ . . تخيلى كم سيكون ذلك جميلا فى الصباح ، أن يصحو كل واحد فينا وينظر فى عينى الآخر ، وهو يعرف أنه حر أخيرا!

ـ لا أدرى . . لا أدرى . أرجوك يا رامى لا تربكنى هكذا . لا أقول إننى لا أحبك بالقدر الكافى للرحيل معك . . كل ما فى الأمر أنك تطلب منى شيئا مهما وخطيرا . . لا يمكننى أن أقرر هكذا . اعطنى الوقت للتفكير . . مجرد وقت .

ـ حسنا . . أنا موافق . . لكن الانتظار سيكون طويلا ومؤلما يا سارة .

يظن الإنسان أنه يبنى طمأنينته على حقائق أكيدة . .

صلبة جدا . . راسخة جدا . .

وعندما تنهار . .

لأنها إن عاجلا أو آجلا تنهار . .

يعود بَغْتة إلى الواقع . .

بمشاعر ملتهبة تجرح القلب الأعزل . .

الذى ظن أنه وجد السلام . .

يعود بَغْتة إلى الواقع . .

أحس إبراهيم أنه كان غبيا . . كيف لم يفهم؟!

كيف لم يفهم أن رامى كان عاشقا؟!

الحب هو الذى غيره . . !

كان يعود متقلب المزاج بسبب تلك الفتاة . .

ولم يفهم ذلك . . !

لكن فى الحقيقة فإن أكثر ما آلمه، هو أن يعرف أن قصتهما كانت مستحيلة . .

كانا سيواجهان صعوبات لا نهاية لها . .

قصتهما كانت مستحيلة . .

ورامى كان يعانى لذلك . .

وسوف يعانى أكثر . .

كان يعرف هو الآخر إلى أى مدى كان يستحيل فعليا تخطى الحواجز . .

كان يعرف هو الآخر أنه وقع فى حب من لن يستطيع الزواج منها أبدا . .

وكانت تلك إحدى الصور المؤلمة الظالمة للحرب ، وللكراهية بين شعبين . .

لمس إبراهيم اليأس فى صوت رامى . .

العجز . . الغضب . .

لرجل يُحب . .

لكنه يصطدم بحواجز أمام حبه . .

كان حزينا لرؤية شابين عاشقين لهذه الدرجة غير قادرين على الحب بحرية . .

لكن الحب يولد أيضا ، حيث توجد الحرب . . الحب هو الزهرة التى تنمو على أرض قاحلة ومقفرة . .

لأن الحب هو الأمل . .

لكن أين السلام؟ !

اقبلوه . .

اقبلوا العيش فى سلام مع إخوتكم . .

يا إسرائيليين . . يا فلسطينيين . .

يا بنى الإله الواحد . .

أين السلام؟!

السلام! إبراهيم يعرف جيدا أن الحكومة الإسرائيلية ليست راغبة فى السلام؛ لأن السلام يعنى مفاوضات سلام . . يعنى تسويات . . يعنى اهتمام . . يعنى إنسانية وإحساس . . لكن الإسرائيليين يريدون الأراضى . . كلها . . يريدون أرض إسرائيل . . يريدون تحقيق حلم إسرائيل الكبرى . . لن يرضوا بالسماح للفلسطينيين بإقامة دولتهم . . لم يحترموا أبدا المعاهدات . . يحاولون أخذ كل شىء . . كل شىء . . ربـاه . . العالم لا يدرك ذلك . . يتساءل إبراهيم . . كيف لا يدركه؟! ويجيبه صوت بداخله أن العالم لا يريد أن يدرك ذلك . . لقد اتخذ قراره منذ زمن بعيد . . قراره بأن يتظاهر بأنه ما من شىء حدث، وبأن يشيح بناظريه بعيدا . . قرر السماح للإسرائيليين بأن يفعلوا ما يشاءون . . اختار الحرب . . اختار الموت . . اختار التخلى عن شعب مهمل وحده منذ الأزل . . إبراهيم يعرف ما سيحدث . . تلك هى ثانى إبادة جماعية لشعب فى التاريخ . . أصحاب السلطة . . المسئولون الأوائل عن هؤلاء الموتى . . لم يتعلموا درس الألم . . لا . . بل قرروا تعذيب شعب آخر مثلما تم تعذيبهم . . وأن يُدَفِّعوا ثمن آلامهم بشر يائسون . . بائسون . . فقدوا كل شىء . . ماعدا شيئا واحدا . . إيمانهم . . ولهذا ينتقدهم الناس . . لأنهم أعطوا اسما لحربهم . . الجهاد . . لأنهم قرروا ألا يفقدوا الإيمان بالله . . ولهذا يُنتقدوا . . ويُقتلوا . . ويُعذبوا . . وها هى معسكرات الاعتقال . .

لا . . لا تبحث عنها بعينيك . . لن تراها . . تلك المعسكرات موجودة فى ذاكرة اليهود ، الذين يديرون حكومة غير شرعية . . الذين يحيون جنون مستشار ألمانى أسبق فى عقول هؤلاء اليهود الذين يبدو أنهم يمثلون كل يهود العالم ، حتى ولو لم يكن الوضع كذلك . . إبراهيم يعرف . . يؤمن . . يأمل أنهم ليسوا كلهم كذلك . . لا يمكن أن يكون شعب بأكمله يؤمن بذلك . . لا يزال هناك أشخاص يؤمنون . . أشخاص لا يخفون المأساة خلف قناع من الوهم . لكنهم يواجهون الواقع . . مثل تلك المرأة . . تلك المرأة التى شاهدها ذات مساء فى التليفزيون فى منزل جاره رياض . . تلك المرأة التى صرحت باسم الجالية اليهودية بسويسرا ـ وهى تضع يدها على قلبها ـ إن حكومة إسرائيل لا تمثلهم فى شىء . . إنهم يحتجون على العنف الذى يمارس ضد الفلسطينيين . . إنهم يهود ، لكن ليس كل اليهود يكرهون الفلسطينيين . . وليسوا كلهم يريدون القضاء عليهم . . إذاً هؤلاء الأقوياء لا يمثلون إرادة كل يهودى فى العالم ، ولكنهم يملكون القوة التى تجعلك تصدقهم . . يملكون القوة . . عندهم معسكرات اعتقال فى ذاكرتهم . . لكنهم الآن هنا لا يمكنهم أن يقيموها إلى الأبد . . ولا أن يقذفوا فيها بالفلسطينيين . . لأن كاميرات التليفزيون اليوم تصل إلينا . . ولأن العالم عندها سيضطر إلى انتشال نفسه من الفتور اللعين الذى يغرقه . . الفتور الذى جعله يقبل كل هؤلاء القتلى . . لأن العالم سيضطر إلى أن يستيقظ . . ربما . . السلام لا يُصنع مع الموتى .

كان إبراهيم يعرف أن سائر العالم يفكر مثل إسرائيل . .

لهذا حاول أن يُفَهِّم أصدقاءه أن يحترسوا . .

يحترسوا من مشاعرهم . .

تبا . . يحترسوا من الحب . .

الحب . .

لأنه سيجعلهم يعانون . .

يوما ما . .

عاجلا أو آجلا . .

مثلما يحدث الآن.

تذكر إبراهيم وهو عائد إلى الجزارة . . الشعر الأحمر القصير . .

الأحمر القصير . .

والمسكينة العاشقة سارة . . والعاشق المسكين رامى . .

رامى . .

والشعر الأحمر القصير . .

الشعر الأحمر القصير . .

الشعر الأحمر القصير . .

حتى اللحظة التى أدرك فيها أن كل هذا اللون الأحمر الذى يراه لم يكن شعر تلك الفتاة ! !

ولكنها دماؤه !

- إبراهيم! ماذا فعلت بيدك؟! ما كل هذه الدماء! جهاد! احضر لى قطنا و. . آه. . يا إلهى. . الشاش. . المطهر! أسرع! ماذا حدث لك؟

- لا تقلقى يا ريهام. . ليست إلا دماء قليلة.

- ماذا؟ لا أقلق! انظر كل هذه الدماء. . هذا جرح عميق جدا كيف حدث هذا؟!

- يا إلهى! ماذا يحدث يا إبراهيم؟!

- لا تقلق يا محمد. . لم يحدث شيء.

- أكان ذلك جنديا؟ هل قابلت أحدا؟ هل آذوك؟ انظر إلى هذا! يا إلهى. . أيؤلمك يا إبراهيم؟

- اهدأ يا محمد. . اهدأ. . كل شيء على ما يرام. . لم أقابل أى جندى. . وأسند ريهام وإلا سيغمى عليها. . كنت شارد الذهن فى الجزارة. . وبدلا من أن أقطع اللحم قطعت أصبعى!

- يا إلهى! ولم ينفصل؟

- بعد الشر ينفصل! ما الذى تقولينه؟ إنه قطع عميق. . هذا كل ما فى الأمر. . الأصبع لا يزال فى مكانه. . لحسن الحظ!

- إذن فقد ذهبت يا إبراهيم. . ! لم يحدث لك شيء أثناء تتبعك له؟!

- صه. . اسكت يا غبى! ألم تر أن رامى فى الصالة؟ اسكت. . اسكت. . إنهم يقتربون. .

- إبراهيم! يا إلهى . . ماذا حدث لك؟!

- إبراهيم!

- يدك! آه يا إلهى!

- اهدأ . . اهدأ . . جهاد . . رامى . . أحمد . . اهدءوا . . لقد جرحت فى الجزارة . . لكن الآن كل شىء على ما يرام . . أؤكد لكم . . يلزمنى فقط ضمادة على يدى . . لكننى بخير أؤكد لكم . . لا تقلقوا .

- يا إلهى . . لكنه قطع فظيع! كيف فعلت ذلك بنفسك؟!

- كنت شارد الذهن بعض الشىء أثناء تقطيع اللحم . .

- شارد الذهن! كم أنت أحمق! أيمكن الشرود أثناء تقطيع اللحم؟! إذن فلنُقَلِّم أظافرنا ونحن شاردون . . هكذا يمكننا قطع أصابعنا أيضا!

- كفى سخرية يا أحمد!

- حسنا . . إنه على أية حال لم يخسر كل شىء . . كيف يمكنه أن يعمل بجزارة والتفكير فى شىء آخر أثناء تقطيع اللحم؟!

- اسكت يا جهاد! هل أحضرت لى القطن والمطهر والشاش؟

- هاك ما طلبتِ .

- حسنا . تعال هنا يا إبراهيم . وأنتم . . افسحوا . . قوموا من هنا . . هيا أجلس هنا . . لنرى . . يا إلهى . . كل هذا الدم! لابد من غسل

الجرح أولا . . لا يمكن حتى رؤية القطع . . قولا لى . . رامى . . أحمد . . أيمكننى طلب خدمة منكما؟ لقد أعددت قائمة بما يجب شراؤه لهذا المساء فلا يوجد عندنا شيء تقريبا فى المطبخ . إبراهيم . . أيمكن أن تعطيهما نقودا؟

ـ أووه . . نقود . . نقود . . أنزف إلى آخر قطرة من دمائى فى العمل ، وتحدثوننى عن النقود! حسنا . . خذ . . امسك يا رامى .

ـ اسمعى يا ريهام أرسلى أخاك مع أحمد . . أنا متعب حقا . .

ـ جهاد يقوم لى بأعمال أخرى! هيا . . قم تحرك يا رامى . . رافق الجماعة!

ـ حسنا . . حسنا . . تعال يا أحمد . هيا بنا . . فَهُم على أية حال يستعبدوننا هنا . .

ـ يا إلهى . . كم أنا متعب . اليوم فى الجزارة نَسِىَ سَيِّد أن . . هل ذهبا . . يا محمد؟

ـ نعم . . اطمئنى . انتظرى حتى أسحب كرسيا . إذن هل ستحكى لنا ما حدث؟ لقد مر اليوم بطوله ونحن ننتظر .

ـ انتظروا . . أنا أيضا أريد أن أعرف . لحظة . . هيا يا إبراهيم . . قد أثبت أنا أيضا .

ـ أليس من الأفضل لك أن تذهب لتقشير البطاطس يا جهاد؟

ـ صه يا ريهام! أريد أن أعرف ما يحدث لرامى! ماذا إذن؟

ـ حسنا . . الآن . . هو . . أنا . . حسنا . .

ـ حسنا! هل يمكن أن نعرف ماذا يفعل رامى تلك الأيام؟ هيا . . لا تجعلنا ننتظر!

ـ حسنا . . فى الواقع . . أنا . .

ـ لكن ماذا دهاك؟ ستقول لنا إلى أين تابعته أم لا؟

ـ لكنى لم أتبعه إلى أى مكان! فى الخامسة كنت أمام المستشفى . . خرج هو . . ركب الأتوبيس و . . و هكذا . .

ـ . . نعم!!

ـ نزل فى بلدة قريبة، حيث يسكن واحد من أصدقائه . . يسر . . يونـ . . ياسـ . . يوسـ . .

ـ يوسف! يوسف ربما!

ـ هذا هو . . برافو يا محمد . . يوسف! لم يحدث شىء . . دخل بيته . . ثم خرجا فى الحال وذهبا إلى المقهى . . لعبا بورق اللعب . . شربا الشاى . . ثرثرا . . و . .

ـ . . و!!

ـ وكفى! ثم ركب رامى الأتوبيس، وأتصور أنه عاد على الفور إلى البيت . . أما أنا فذهبت إلى الجزارة .

ـ لكن فى أية ساعة ركب الأتوبيس عائدا إلى البيت؟

ـ أظن أن ذلك كان فى حوالى الساعة السادسة . . ربما كانت السادسة والنصف . نعم السادسة والنصف أكثر أو أقل .

ـ وهو عاد إلى هنا قبل السابعة، إذن فمن المستحيل أن يكون قد ذهب

إلى مكان آخر بعد ذلك . . عجبا . . وماذا إن كان قد اكتشف أنك تتبعه وغير برنامجه ليضللك؟! لعله لم يكن ذاهبا إلى يوسف ، لكن حين رآك ارتجل زيارة لصديقه!

ـ دعك من الافتراضات يا ريهام . . لا . . لا . . أنا واثق أنه لم يرنى . . لقد كنت حريصا جدا . . لو كان رآنى لكنت لاحظت ذلك . ثقوا بى . . لم يرنى .

ـ عجبا يا إبراهيم . أنا أيضا كنت مقتنعا أن هناك شيئا يحدث . . وظننت أننا اليوم كنا سنكتشف الحقيقة . . وعوضا عن ذلك . . لا أعرف . . يمكننى محاولة مراقبته غدا لأرى ، إن كان سيعود لزيارة يوسف .

ـ لا! أعنى . . لا . . لا يا محمد . . الأمر لا يستحق . . أؤكد لك . سأتكلم معه . . سأقول له إننا لاحظنا كلنا أنه تغير ولا شك أن هناك شيئًا يحدث له . . وسأسأله أن يشرح لى ما يفعل تلك الأيام .

ـ لا يا إبراهيم! هكذا سيكون حذرا . . سيجد عذرا ما ولن تسنح لدينا بعد ذلك أية فرصة لمعرفة الحقيقة .

ـ كلا . . لا تقلقى يا ريهام . ثم إننى بدأت أغير رأيى . . لعلنا أسأنا تفسير الحالة العجيبة التى مر بها .

ـ لا أعرف يا إبراهيم . . ربما كانت ريهام على حق .

ـ لا يا محمد . . أؤكد لكم أن كل شىء طبيعى . والأفضل هو أن نثق به . . فهو أولا وأخيرا صديقنا رامى الذى نعرفه ونحبه . نتكلم عنه كما لو كان غريبا عنا . . فتى لا نعرفه . لو أن هناك شيئا مُهما فسوف يقوله لنا حتما .

ـ حسنا . . لست مقتنعة تماما .

ـ فلنفعل ذلك يا ريهام . . فلنثق فى كلام إبراهيم . جهاد . . أنت لم تفتح فمك بكلمة!

ـ لا . . الواقع . . لا أدرى . . كنت أظن أننا سنكتشف شيئا . . بينما . . لا أدرى . .

ـ ثقوا بى يا أولاد سأكلمه قريبا .

ابتلع إبراهيم ريقه بصعوبة . . أحسه جافا وثقيلا . .

ثقل هذه الأكذوبة . .

ثقل هذه الأكذوبة . .

التى كانت تثقل على قلبه وتكاد أن تخنقه . .

كان القلق مضن . .

والغضب والألم يذوبان . .

فى قوة فريدة مدمرة . .

وفور نجاحه فى التخلص من رفاقه المتشككين . .

خرج إبراهيم ليستنشق بعض الهواء . .

الهواء البارد لسع خديه . . جفت دموعه بعد أن لامسها نسيم الليل . .

لكن قلقه . . آلمه . .

وقبل ذلك سخطه بقى كما هو . .

شعر بأنه مسئول بشكل ما عما يفعله رامى . .

ربما ؛ لأنه كان الأكبر سنا . . أحس إبراهيم نفسه مكبلا بالمسئوليات . .

التى كانت عليه نحو كل الآخرين . .

كان حملا ثقيلا جدا بالنسبة لشاب فى الخامسة والعشرين من عمره . .

لكن التربية التى تلقاها صنعت منه شخصا جادا وحَيّ الضمير . .

ربما بشكل زائد . .

شخصا يتألم بشأن أخطاء الآخرين . .

أو على الأقل بشأن ما يَعتبره خطأ . .

كان يشعر بأنه مذنب تجاه الآخرين على الأقل

كان يعرف الآن أنه قد حرم نفسه من فرصة مواجهة الموقف مع أناس جديرين بالثقة ، وراجحى العقل مثله . .

لكن لو عاد الزمان به ، لكان قد فعل الشىء نفسه ألف ألف مرة . .

كانت تلك سمة من سمات شخصيته القوية

القاسية والرقيقة . .

المعقدة والبسيطة جدا فى الواقع . .

شخصيته التى صار يكرهها . .

ضعيف . .

نام نوما قليلا ومقلقا . .

فى الصباح التالى . . استيقظ مبكرا وفكر فيما عليه أن يفعل . . ثم قرر مراقبة رامى فى ذلك اليوم أيضا . .

كان يجب أن يعرف إجابة سارة قبل أن يتصرف بشكل أو بآخر . .

فى العمل ، كان شارد الذهن متفكرا اليوم بطوله . .

حَرِص فقط . .

على ألا يقطع إصبعا آخر . .

ثم ترك العمل فى الخامسة ، وانتظر رامى أمام المستشفى . .

ركب الأوتوبيس معه ونزل فى نفس محطة اليوم السابق . .

سار خلفه حتى السينما . .

وصلت سارة بعد بضع دقائق . . هذه المرة كانت ملابسها أكثر حشمة . . بنطلون جينز وقميص . . شكلها هكذا ، لم يكن فيه ما يوحى بأنها فتاة سيئة . .

أدرك إبراهيم ساعتها أن كل شىء بدا له فى الليلة السابقة أقبح بكثير من الحقيقة . .

الشباب . . سارة . . المحل . . المستوطنة اليهودية كلها . .

أحيانا يسهل الوقوع فى فخ الأحكام المسبقة . .

وقد أدرك إبراهيم ذلك . .

كان مترددا فى السير خلفهما حتى القاعة . . فانتهى بأن قرر أن ينتظرهما بالخارج . .

ندم على ذلك بعد الدقائق الأولى المملة . .

دام الفيلم ساعتين، وخلال الساعتين لم يكف عن التفكير فى الكلمات التى سينتقيها لمواجهة رامى . .

لما رآهما أخيرا يخرجان . . اختبأ خلف شاحنة وتابعهما بعينيه . .

سارا طويلا وأخيرا دخلا فى حديقة ممتلئة بأطفال يلعبون . . وسيدات ينزهن كلابهن الصغيرة . . وشيوخ يقرءون الصحف . .

جلسا أخيرا على مقعد من مقاعد الحديقة . .

اختبأ إبراهيم خلف شجرة بلوط ضخمة . . وهو يحبس أنفاسه ويحرص على ألا يراه أحد . .

ـ فيلم رائع . . أليس كذلك؟

ـ هه! معذرة . . كنت أفكر . . ماذا قُلت؟

ـ لا شيء . . انس الأمر . هل ممكن أن أعرف ما بك؟ لم أرك قط باردا هكذا . . كما لو كان لا يهمك شيء مما حولك!

ـ ربما كان ذلك صحيحا يا سارة . لا شك أن الفيلم لم ينسنى لماذا لا أنام ليلا . . لا شك أن ذلك ينطبق على نزهة أو كلمة نتبادلها من هنا أو من هناك . . ولاشك أيضا أن يوم عمل بالمستشفى أو حتى مناقشة مع أصدقائى، لا يمكنهما فعل شيء . أيكفيكى هذا؟

ـ ويحك . . لماذا تهاجمنى؟ لقد سألت فقط عما بك! يمكنك ـ مَهما

كان ـ معاملتى بشكل أفضل، والتوقف عن الحديث معى بتلك النبرة كما لو كنت مسئولة عن كل مشاكلك!

ـ حسنا. . أنت بالفعل المسئولة يا سارة! أنت التى جعلتنى أحبك. . وأنت التى لا تريدين الآن الذهاب معى. . أنت التى تدفعيننى للجنون. . إنه وجهك الذى أراه قبل أن أنام. . أنت سبب مشاكلى. . نعم!

ـ ماذا تقصد من ذلك؟

ـ أقصد أنه بدلا من أن تظهرى دائما بمظهر المترفعة غير المكترثة. . اسمعى لنغلق الموضوع. . حقا. . لنغلق الموضوع. أنا لا أفهمك. . لكنى لا أرغب نهائيا فى الشجار. إنها فترة شنيعة. . هذا كل ما فى الأمر. لا تطلبى منى أن أتصرف كما لو كان كل شىء طبيعيا. . لأن الوضع ليس هكذا. شعبى يصارع جيشك. . أبناء شعبى يموتون كل يوم. . أصدقائى مضطرون للتعايش مع آلام الماضى. . رفيقتى لا تريد أن تعيش معى. . هذا أسوأ وقت فى حياتى.

ـ ما هذا. . أنا لا أريد أن أعيش معك؟! لم أقل ذلك أبدا!

ـ لكنك أظهرته لى. وهذا يكفينى.

ـ لا أفهم. . ماذا فعلت؟!

ـ أعنى أنه فى أول فرصة لك كى تثبتى لى أننى مهم فى حياتك، أدرت لى ظهرك. لو كان شخصا ما مهما بالفعل فى حياتك فيجب أن يكون قادرا على جعلك تقدمين على أفعال ميئوس منها. . أو على الأقل عفوية. . مندفعة. الحب هو الاندفاع. . اللامعقول. . وهذا كل ما ترفضين منحى إياه.

ـ اسمعنى! بأى حق تسمح لنفسك؟ أنت لا تعرف عنى شيئا! لم أحب أحدا مثلما أحبك . . ولم يعاملنى أحد أبدا هكذا! لا أعرف ما تفعل بك أو ما فعلت بك النساء الأخريات . . لكن لا تصدق أن الحب يعنى عدم الإحساس بالمسئولية أو الاندفاع! أنا أحرص عليك أنت الآخر . . أحاول أن أحمى حبنا . . ألا تفهم أنك أيضا تستحوذ على كل أفكارى؟!

ـ لو كان هذا صحيحا، فإنك تثبتين لى ذلك بطريقة غريبة!

ـ وكيف يجب علىّ أن أثبته ـ إذا سمحت؟

ـ خان يونس مثلا! ماذا قررت بشأن ذلك؟ هل ستأتين معى؟

ـ اسمع . . أنا . . أنا لم أقرر بعد . . إنك حقا تطلب منى شيئا ليس بالسهل علىّ. أحتاج للمزيد من الوقت . . ثم إنك لم تحدثنى بالأمر سوى بالأمس.

ـ وقت . . وقت! إنها مجرد حجة لعدم الرد!

ـ فكر كما تريد. يجب أن أذهب الآن . . كل مرة نتقابل فيها يزداد الأمر سوءا كما لو كان كل ما نُحسن عمله هو الشجار! اسمع سنتقابل بعد يومين . . غدا لدى . .

ـ أنا . . حسنا. سنتقابل بعد يومين عند محل «صن دايز» . . فى الوقت المعتاد.

ـ سلام.

أسلوب بارد للافتراق . . بارد . .

غاضب . .

إحباط وتعب في صوته . .

إبراهيم أحس أن قصتهما تجاهد للبقاء كما لو كان ذلك بالقوة . .

وإنها كانت صامدة بالصدفة أمام العوائق والصعوبات . .

لم تكن سوى مسألة وقت . . يوما . . اثنين . .

رغم قوة الحب . .

انطفأ شيء ما . .

حزن في الواقع . .

قليل من الحزن . .

إبراهيم في الواقع لم ير رامي هكذا أبدا . . ثائرا إلى هذا الحد . . مولعا إلى هذا . . تعيسا إلى هذا . .

إلى هذا الحد . .

تابعه خلال عودته إلى البيت . . لاحظه . .

حاول أن يفهم فيما كان يفكر . .

نظرته الباهتة . . الغائبة . .

خطوته البطيئة . . المتجرجرة . .

بدا خاليا من كل همة . .

عاجزا عن التفاعل . .

شعر بالألم لرؤيته على هذه الحال .

أثناء صعوده الأتوبيس ثم عودته إلى الجزارة، قرر أن يكلمه . .

يجب عليه ذلك . . يجب عليه ذلك . .

هذا المساء ذاته .

ـ رامى !

ـ نعم !

ـ اسمع . . يجب أن . . علىّ أن . . حسنا . . أرغب فى الحديث معك إن لم يكن ذلك يزعجك .

ـ أهذا ما تظنه . . هيا تفضل .

ـ لا . . اسمع . . إنه موضوع دقيق . . ربما أمكننا الخروج لنتمشى .

ـ حسنا . . هيا بنا .

ـ ما هذا البرد . . الليلة شديدة البرودة .

ـ أتريد أن أعود لإحضار سترتك يا إبراهيم؟

ـ لا . . شكرا يا رامى . على كل حال لن نغيب طويلا .

ـ حسنا . . قل لى كل شىء .

ـ حسنا . . يجب أن تفهم أنه يصعب علىّ الحديث فى ذلك . . لاأدرى حقا من أين أبدأ .

ـ ابدأ بما تريد أن تقوله لى . بما يتعلق الأمر؟

ـ إذاً . . اســمع يا رامى . . لقــد لاحظنا كلنا فى هذه الأيام أن . . حسنا . . إنك متقلب باستمرار . . غريب الأطوار بعض الشىء . . أحيانا تبدو سعيدا ولطيفا . . وأحيانا منتشيا وغير عصبى . . وأحيانا أخرى حزينا مكتئبا . . أو مغتاظا نزقا . . حسنا . . فتساءلنا عن سبب تلك التغيرات المزاجية المفاجئة .

ـ إبراهيم . . أستطيع أن أشرح لك . . كل ما فى الأمر . .

ـ لا . . من فضلك . . أرجوك . . أريد أن أنهى كلامى . إذن . . أنا . . الآن ، مـا سـأقـوله لك لا يخص أحـدا غـيـرى . . لا شـأن للآخـرين به . . اتفقنا !

ـ . . اتفقنا . . لكن . .

ـ أنا على علم بموضوع سارة .

ـ إن . . أنا . . مـ . . لكن . . سـ . . سـ . . سا . . سارة . . أنا . .

ـ نعم . . لا تتـهتـه هكذا . أعرف أنك تحب فتاة يهـودية ، وأنها تدعى سارة ، وأنكما تتقابلان خفية ، وأنك تريـد أن تذهب إلى خان يونس مـعـهـا ، وأن تتـركنا لأننا . . كـيف قلت ذلك . . يومـا مـا يمكن ألا نكون هنا .

ـ ســارة ! لكن . . أنا . . لـ . . لا . . أعــ . . أعــ . . أعــرف . . أية . . سـارة . . أنا . . إبراهيم ، اسمع ، أنا . . ليس هناك أية . . اسمع . . أنا . . أنت . .

ـ اسمعنى جيدا . . أنا فضلت أن أكتم أمرك وألا أقول شيئا للآخرين ، وأن أحتفظ بذلك لنفسى . . لكن الآن يأتى دورك لتساعدنى . الآن وقـد اكتـشـفت سرك . . لا يجب أن تنكره . . عليك فـقط أن تشرح لى . .

ـ آه بالله عليك! ماذا ستفعل الآن؟ هل ستقتلنى؟ تريد أن تقتلنى؟!

ـ كف عن هذا. . اسمع. لا تتصرف كالجبناء. . اللعنة. . اعترف بمسئولياتك!

ـ حسنا يا إبراهيم. . أنت. . أنا. . اهدأ، اتفقنا! اتفقنا!. . أنا. . سارة. . آه، تبا لك. . لكن كيف. . كيف اكتشفت الأمر؟!

ـ هذا ليس له أية أهمية الآن. أريدك أن تقول لى متى وكيف قابلت سارة لأول مرة؟! ومَن على علم بقصتكما. رامى هذا الأمر مهم. قصتكما تضعكما للأسف فى خطر أنتما الاثنان. فاشرح لى كل شىء منذ البداية.

ـ حسنا. . حسنا. . أنا. . ذات يوم ذهبت لرؤية صديقى يوسف فى قريته. .

ـ أى يوم كان هذا؟ حاول أن تكون دقيقا يا رامى. . هذا مهم!

ـ حسنا. . لكنك لن تقول شيئا للآخرين. . اتفقنا! لن تقول شيئا لمحمد! من فضلك يا إبراهيم. .

ـ بالطبع. . بالطبع. . أكمل. . أى يوم كان هذا؟

ـ أنا. . منذ شهر. . حسنا. . كان ذلك فى نوفمبر. ذهبت إلى يوسف. . تعرفه. . صديقى المحب للسلام. . وقال لى إنه تعرف على جماعة من الجامعيين الإسرائيليين المحبين للسلام. . هكذا. . وأراد أن يعرفنى عليهم. . قلت له فى بادئ الأمر إننى لا أظن أنها فكرة جيدة. . لكنه فيما بعد شرح لى أنه لم يكن هناك أى خطر فى ذلك. وأنها ستكون تجربة رائعة. . باختصار. . انتهى به الأمر بإقناعى. . فذهبت معه وقابلت مجموعة من الشباب. . لكنهم

كانوا أشخاصا شجعان . . أؤكد لك . . أعنى . . لطالما قلت لى إن اليهود كلهم قساة على حد سواء . . لكن هؤلاء كانوا أناسا شرفاء . . وكانوا يعرفون ما يفعله بنا جنودهم كل يوم . . أتفهم . . لم يكونوا مثل الآخرين . . ومن بينهم كان هناك من دَعُونى للخروج معهم . حسنا . . لما خرجت معهم . . عرفت سارة . كانت . . لاأدرى إن كنت ستفهمنى . . لكنها كانت حلوة . . وظريفة . . ولطيفة . كانت مختلفة عن الفكرة التى كانت فى ذهنى عما يمكن أن تكونه فتاة يهودية . كما ترى يا إبراهيم . . أعتقد أننا فى الواقع نحتفظ ببعض الأحكام المسبقة عنهم . . من الخطأ أن نقول إنهم كلهم يحبذون العنف . . كلهم متعجرفون . هناك الكثيرون منهم ممن لاينطبق عليهم ذلك . . وبعضهم ممن يرفضون الحرب . على أية حال . . نعم . . هذا صحيح . . أريد أن أرحل إلى خان يونس مع سارة . أنا أحبها . . وهى تحبنى . لا أحسبك تقدر على منعى من الحب .

- اسمع يا رامى . . لن أقول لك إلا شيئا واحدا . . لم أتكلم مع أحد عن سارة ، وليست عندى النية لذلك ، لكن لو كنت تريد فعلا الذهاب معها ، فأنا أقولها لك : أنت مخطئ . هناك الكثير من العوائق . . أنتما أبناء يسفك كل منهما دم الآخر . . أبواها لن يسمحا لها أبدا بالعيش مع فلسطينى . . أشعر بالحزن لأجلك يا رامى كما أشعر بحزن كبير لسارة . الحرب ظالمة . . وحقيقة أنه لا يمكن أن تكونا حبيبين . أيضا يجب أن تتصرف بشكل عملى وبعقلانية . . أتعتقد حقا أنه يمكنك التزوج من فتاة إسرائيلية هكذا ببساطة؟ كأنه لا شىء هناك؟ يمكنك أن تفعل ما تريد . . أن تتجاهل

تحذيراتى . . لكن لتعلم أنه فى الوقت الذى تكون قد ارتكبت فيه هذا الخطأ فلن يمكنك اللجوء إلىّ بعد ذلك . . لن أستقبلك بصدر رحب .

ـ تبا لك يا إبراهيم . . لا تتكلم هكذا! ألا تستطيع فهم أنه يمكن وجود شعور أكبر من كل شىء؟! هل هذا صعب الفهم . . صعب التقبل لهذه الدرجة؟! وهذا فقط لأنك تتحكم فى فتاتك . . أنت لم تحب فى حياتك! لا أعرف ما هى مشكلتك . . لكنى لا أواجه أية مشكلة . . أحب سارة وسأتزوجها إن أردت . . فلا أحسبك تُملى علىّ ما يجب وما لا يجب علىّ عمله!

ـ أكرر لك فقط يا رامى : لا تَعُد أبدا للبحث عنى . . حتى عندما تكتشف أنك كنت على خطأ .

ـ و لكن فيما الخطأ فى الحب . . هه!!

ـ اسمع يا رامى . . الحب ليس مشكلة . . الحب شعور نبيل . . لست ضد سارة لكنى أحذرك : والداها لن يسمحا لها بحبك . إن كنت تريد الرحيل معها . . فلتفعل . لكن لتعلم أنك فى يوم ما ستقول إننى كنت على حق . . وساعتها لن يمكنك الرجوع إلى الوراء . إن رحلت معها . . تتخلى عنا كلنا .

ـ لماذا تجبرنى على الاختيار؟

ـ لقد اخترت بالفعل .

فى الحقيقة كان اختيار رامى خطأ.

ذات يوم عاد رامى إلى البيت مساء، وانتحى بإبراهيم جانبا وقال له . .

تبا لك . . ربما كنت على حق . . كنت على حق . .

اليوم قالت لى سارة إنها غيرت رأيها بخصوصنا، وأنها ترى أن آراءنا متضاربة حول أشياء كثيرة . . وخاصة حول مسائل فى غاية الأهمية . . ثم قالت إنها على أية حال لم تعد قادرة على الاستمرار على هذا النحو . . على اللقاءات الخفية . . خوفا من التعرض للهجوم . . أو حتى القتل من قومها أو قومى . .

من الأفضل لى شابا يهوديا بلا مشاكل، يمكن لأبى وأمى أن يدعواه لتناول الغداء يوم السبت . .

هذا ما قالته لى . .

ثم سَلَّمت علىّ وذهبت .

إبراهيم نظر فى عينيه نظرة قاسية وقال له . .

قلت لك ألا تعود . .

وقال له رامى فقط . .

سامحنى .

أصبح رامى حزينا جدا وبائسا جدا . . كان يفكر طوال النهار فى سارة . . والجميع فى البيت ، كانوا يجاهدون أن يتركوه وحده ، وألا يقحموه فى المناقشات التى تدور بينهم . كان إبراهيم يراقبه بمزيج من الحزن والغيظ . . فى الواقع كان دائما ينبه أصدقاءه أنه من الأفضل ألا يقتربوا من العدو حتى ولو لم يكن يحمل سلاحا . .

وجهات نظر مختلفة جدا . .

عدم تسامح ظاهر . .

اختلاف فى التكوين . . وفى الأفكار

انتماء لفرق عرقية مختلفة . . وشديدة التعصب بالأخص . .

كان مستحيلا . . مستحيلا حب شخص مختلف بهذه الدرجة . .

ومع ذلك أحس إبراهيم بالمعاناة مع رامى . .

لأنه كان يفهم إحساس أن تفقد شيئا . . الألم الذى كان يكتسحه . .

كان يفهمه ؛ لأنه كان يكفيه أن يتذكر أشجان . .

ذاك الوجه الناعم الرقيق . .

تلك البراءة المستترة . .

تلك العينان الرائعتان . .

أحيانا كان يحلم بها . .

يحلم بحب لم يعشه أبدا . .

كان يظن أن الله يسمح أحيانا لعباده بفتح نافذة على ما كان يمكن أن تكون عليه حياتهم . .

وهذا ما حدث له . .

رأى أشـجـان فى أحـلامِـه . . تلك التى أحـبـهـا دون حـتى أن يعرفها . .

استطاع أن يرى عينيها حتى ولو كان ذلك للحظة واحدة . .

ثم ماتت . .

دون أن تتمكن من النظر فى عينيه . .

فكر إبراهيم أنه لابد أن الأمر مشابه قليلا بالنسبة لرامى . .

رأى وجه سارة . .

رغم أنه لم يستطع أن يحبها . .

فى حالته تكلم معها . .

أحب صوتها . .

رغم أنه لم يستطع أن يحبها . .

قال إبراهيم لنفسه . .

لعل تلك القصص تُستأنف فى السماء . .

لأنه فى الواقع محزنا أن تبدأ تلك القصص، وأن تنتهى فى أقل من ساعة . .

كان ذلك محزنا . .

تماما مثلما كان رامى وإبراهيم حزينين فى تلك الفترة . .

كان ذلك فى١٩٩٧ .

كان عام قد مَر منذ استقرار إبراهيم وريهام وجهاد فى بيت رامى ومحمد . .

لكنه بدا لهم دهرا . .

كما لو كانوا يعرفون بعضهم البعض منذ سنوات وسنوات . .

كانوا كالإخوة . .

كما لو كانوا يعرفون كل شىء عن بعضهم البعض . .

وفى الواقع أنهم صاروا بالفعل يعرفون بعضهم بكل عيوبهم . . بكل ميزاتهم . .

كانوا يفهمون بعضهم البعض دون حتى الحاجة إلى تبادل كلمة واحدة . .

وكان وضعهم كعائلة يمثل لهم ما يشبه النظام المناعى . .

فى مواجهة الحرب . .

كانت القوات الإسرائيلية تحتل قرى كثيرة . .

وكان انتشار مستوطنات اليهود الآتين من كل أنحاء العالم يتضخم بشكل كبير . .

كانت الحكومة الإسرائيلية تقول إنها تريد السلام، ولكن للجلاء عن الأراضى المحتلة يجب أن تتوقف أعمال العنف من جانب الفلسطينيين . .

كان الجنود ودباباتهم ينتظرون فى فتور أن يأتى فلسطينى يائس بفعل يائس . .

وهكذا ينتهزون الفرصة ليقولوا إن الفلسطينيين لا يريدون السلام . .

وليبقوا فى أماكنهم، وليأتوا بمستوطنين يهود آخرين . .

ربما يأتى زمن يمكن أن يحدث فيه شىء ما . .

ربما يأتى زمن يمكن أن يتوقف فيه تقدم الإسرائيليين . .

لكن الآن ما الذى يبقى لهذا الشعب الذى تغطيه الكوفيات؟!

ما الذى يبقى لهذا الشعب الذى تغطيه الكوفيات واليأس؟!

بِضع رقع من الأراضى . .

وحتى تلك القطع القليلة . . احتلت . . اغتصبها اليهود . .

وحتى فى تلك الرقع القليلة!

الأرض الطاهرة فى المساجد . . الموضع الوحيد للسلام المطلق . .

داستها أحذية الجنود العسكرية . .

وحتى فى تلك الرقع القليلة!

صراخ النسوة الثائرات اللاتى يتشاجرن مع الجنود . . مزق السكون . .

وحتى فى تلك الرقع القليلة . .

لا سيما فى تلك الرقع القليلة . .

اشتعلت الحرب .

ذات يوم وإبراهيم فى طريقه إلى الجزارة، رأى جماعة من الجنود يحتسون البيرة، ويضحكون وهم يَسدون مدخل أحد المبانى، ويمنعون برشاشاتهم عددا من الرجال من الدخول.

لما اقترب وسأل أحدهم عما يحدث..

أجابه بأن المبنى تم اعتباره مبنى للمتمردين، ومن ثَم يُمثل خطرا على المستوطنات اليهودية بالمناطق المجاورة..

وأن الجنود استلموا أمرا بالتفتيش و بمنع أى من كان من الدخول..

شرح الرجل لإبراهيم أنه لم يكن سوى موظف، وأن المبنى كان مجرد بنك..

استلم الجنود أمرا بتدمير المبنى وبإطلاق الرصاص على من يحاول الاعتراض..

تعبير حانق وابتسامة مُرة ارتسما على وجه إبراهيم..

بينما كان ينظر إلى هؤلاء المسلحين، الذين يبلغون بالكاد ما يزيد على العشرين عاما.. بدا بعضهم حتى فى مثل عمر أحمد..

فى لحظة ما وصلت فتاة طويلة ونحيفة.. شعرها طويل مجعد..

شدت انتباه الجنود مُلَوحة بورقة..

ها هى مائتان وخمسون توقيعا لأشخاص من أنصار السلام يقرون بأنهم لم يمسكوا حجرا بأيديهم، ولا يريدون فعل ذلك فى المستقبل..

هؤلاء الرجال يريدون فقط الدخول لممارسة عملهم. . وأنتم. .
أنتم تستخدمون العنف. .

العجرفة. .

لماذا العنف؟! نحن نريد السلام. .

لا نريد الحرب. .

لماذا تدمرون هذا المبنى. .

الذى يتيح فُرص عمل لرجال كثيرين؟!

لماذا تطلقون الرصاص على أبناء شعبى؟!

نحن نريد السلام. .

لكننا لم نَعُد نعرف كيف نحمى أنفسنا. .؟!

كيف نحمى أنفسنا منكم. .؟!

ها هى مائتان وخمسون توقيعا، وأنا واثقة من القدرة على الحصول على مائتين وخمسين أخرى ومائتين وخمسين إضافية. . لكن بعدها يأتى دوركم. .

لكن بعدها يجب أن تضعوا نهاية للعنف. .

لماذا تطلقون الرصاص على الناس؟!

الجندى ضحك وقال. .

أنا فقط أنفذ الأوامر.

كان اسم الفتاة ياسمين . .

كانت طبيبة . . أو على الأقل كانت كذلك من قبل . .

كانت فى الواحدة والثلاثين من عمرها ، وقبل أربعة أعوام قبضت عليها الحكومة الإسرائيلية ؛ لأنها بعد واقعة تراشق بالرصاص فى بلدتها . .

التى كانت تقع فى منطقة محتلة بالكامل من الجيش اليهودى . .

هبت لإسعاف الجرحى والقتلى . .

وصل رجال شرطة إسرائيليين . . وقبضوا عليها ، هى وطبيبان آخران . .

الأطباء كان قد سبق القبض عليهم من قبل ، لإسعافات قدموها بالأردن وبلبنان إثر مذابح اللاجئين الفلسطينيين . .

قبض عليهم ثلاثتهم وظلوا فى السجن مدة عام . .

عندما عادت ياسمين إلى بلدتها . . لم تجد بيتها . . دُكَّ بيتها . . ولم يبق فرد واحد من أسرتها . .

حاولت إعادة بناء وجودها . . والابتسام من جديد . .

ثم انخرطت فى حملة ضد الحرب أطلقها جماعة من الطلاب الفلسطينيين . .

الآن تترافع عن قضية شعبها . . السلام . . اللاعنف . . الحوار . .

إبراهيم أخذ يناقشها وهو فى طريقه إلى الجزارة . .

مؤكدا أن قضيتها نبيلة ، وأن أفكارها نبيلة . .

لكن ذلك لن يفيد فى شىء ضد الإسرائيليين . .

قال لها . . انظرى . . انظرى . . ليس هناك سوى الجنود . .

تذكرى ما قاله لك ذاك الغلام . .

أنا أنفذ الأوامر . .

إنهم فاقدون الإحساس بآلام شعبنا ، وحتى بآلامهم . .

حتى حين يرجو العالم بأجمعه . . حين يتوسل . . بعض الاتفاقيات . .

فهم يتركون مائدة المفاوضات بمنتهى الصلافة . .

ويقولون لا .

لا .

وبتلك الـ «لا» البسيطة يقتلون مئات الأطفال . .

وبتلك الـ «لا» البسيطة يحكمون على شعبنا بعذاب أبدى . .

ياسمين . . يمكنك أن ترغبى فى السلام كيفما تشائين . .

لكنهم على الجانب الآخر لو أصموا آذانهم عن طلبك للسلام . .

فإن هذا لن يجدى شيئا . .

أتفهمين ! أما نحن جميعا . . لانولد بالرغبة فى الثأر والعنف . .

لكنها تصير جزءا متأصلاً من كياننا . .

خاصة عندما تنفجر قدرتنا على الاحتمال . .

ياسمين . . أنت فتاة جميلة وذكية . .

لكن هذا لا يكفى . .

ضِدهم . . هذا لا يكفى .

بعد أن قام بالسلام على ياسمين، أسرع إبراهيم للذهاب إلى الجزارة . .

كان متأخرا عن موعده بالفعل . .

لكنه أثناء سيره رأى فى المخيم الذى وجد فيه أحمد واللاجئين الآخرين . .

عددا كبيرا من الرجال والأطفال . .

اقترب وظل يراقبهم . .

كان هناك ما يشبه ميدان المعركة . . مُشَيَّد بألواح خشبية . . إطارات مطاطية . . حبال . . أدوات بالية . .

وأطفال فى الزى العسكرى . . برشاشات ومسدسات مزيفة . . يتلون آيات القرآن الكريم التى تمجد الجهاد . .

كان الأطفال يجرون . . يقفزون . . يزحفون . . وهم يصوبون أسلحتهم نحو أعداء وهميين . .

وفى نهاية مسيرتهم كانوا يتوقفون أمام الحشد الذى كان يحمسهم . . يباركهم . .

كانوا يتوقفون . . يستعرضون صدورهم الصغيرة . . يضمون أرجلهم النحيلة . . ويرفعون عيونهم بفخر ويصيحون . . والغريب أن أصواتهم كانت تخيف قليلا . .

تكاد تكون متوعدة . .

متوعدة . .

كانوا يصيحون . .

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ .

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ .

﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ .

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ .

كانوا يصيحون بكل ما يملكون من قوة . . رافعين بنادقهم نحو السماء . .

فخورين . .

نظراتهم شرسة . .

يضحكون أحيانا . .

آباؤهم كانوا يراقبونهم بزهو . . والحشد كان يحمسهم . .

فى تلك اللحظة كان إبراهيم لديه رغبة فى البكاء . .

رأى هؤلاء الأطفال وقد سُدت فى وجوههم الأبواب . .

تلك الأفكار التى كانوا يحشون بها رءوسهم . .

فى تلك السن النضرة . .

لم يتجاوزوا السابعة . . الثامنة . . التاسعة من العمر . .

كرسوا كل حياتهم لشعبهم . .

كرسوا كل حياتهم لكراهية عدوهم . .

لقتاله . .

وللصلاة بيد موضوعة على السلاح . .

وقد حُكم عليهم وهم لا يزالون فى هذه السن . .

حُكِم عليهم بحياة العنف . .

وموتهم كان قد كُتب بالفعل . . نهايتهم كانت قد كُتبت بالفعل . .
كانوا سجناء قَيْد لم يكن ليتحطم أبدا . .

كانوا سجناء العنف . .

كانوا فاقدين للحرية . .

كل أشكال الحرية .

مشاعر متضادة . .

مشاعر متضادة . .

لأن قلبه لم يطاوعه على إدانة آباء هؤلاء الأطفال . .

إبراهيم لم يكن قادرا على إدانة هؤلاء الناس . .

لأنه فى زمانهم . . كَبُر آباء هؤلاء الأطفال، والألم يمزقهم . .

والكراهية تنهشهم . .

كيف يمكن الحكم عليهم؟!

كيف يمكن إدانتهم؟!

طفل يُقتل أبواه أمام عينيه ستظل نفسه مدمرة إلى الأبد . .

سيظل معذبا بالتعطش للثأر . .

سيظل معذبا بالكراهية . .

المُلحة . .

الثابتة . .

العنيفة . .

سيظل معذبا؛ ولن يستطيع سوى اعتناق حياة الكراهية . .

وسيربى أولاده بنفس الطريقة . .

بذرة الشر . .

الآن تسللت بينهم . .

ولم يعد هناك شيء يمكن عمله لمقاومتها . .

أشاح إبراهيم بوجهه عن هذا المشهد . .

كان يؤلمه أن يفكر . .

أنه أيضا مثل هؤلاء الأطفال . .

وكذلك أصحابه . .

كانوا مثل هؤلاء الأطفال . .

دمرتهم الكراهية . .

دمرهم الشر .

سمع إبراهيم صوتا بداخله . .

يصرخ فيه أن يفعل شيئا . . أن يمنع الكراهية من العصف به . .

لكن حتى الهواء الذى كان يتنفسه صار مشبعا بها . .

الكراهية . .

حتى الأرض التى كان يطأها صارت ملوثة بها . .

صارت أرض الكراهية . .

- تبا لك يا أحمد . . أنت تمسك باستمرار كتابا فى يدك! أتساءل كيف لا تَمَل . . ؟!

- أمل! أتمزح؟! القراءة تشبه ركوب قطار تجهل وجهته . . ولما يحين موعد نزولك منه . . تشعر أنك حزين . .

- فى رأيى . . أنت حقا لست طبيعيا . بالمناسبة . . ما نوعية هذا الكتاب؟

- هاملت لشكسبير . . لقد قرأته ألف مرة، لكن فى كل مرة تجتذبنى الصفحات، ولا أقوى على الفكاك منها قبل الانتهاء من الكتاب .

البطل لديه جاذبية ومكر عجيبان . . أتعرف . . أعتقد أننا نبخس قدر الناس المتخلفين عقليا . . فهاملت - بفضل تظاهره بالجنون - استطاع الثأر لمقتل أبيه . أما عن حبه المُعذب لأوفيليا . . فنحن نتساءل حتى اللحظة الأخيرة إن كانت الفتاة الشابة الجميلة قد فازت حقا بقلب ولد مزعزع مثله . .

- أشعر أن الكتب ترهقك بعض الشيء يا أحمد . ما رأيك فى أن نلعب دورة «شطرنج» ! نشكل فريقين . . ثم . .

- إبراهيم . . لتلعبا أنتما معا . . يجب أن أنتهى من قراءة كتابى . سامحنى . . هه .

- أنت مجنون تماما .

فى صباح يوم ١٢ مارس ١٩٩٨ ، خرج إبراهيم للذهاب إلى العمل . .

كان معه محمد ورامى . . كان يجب أن يذهبا إلى المستشفى . .

ساروا وهم يثرثرون . .

فجأة توقف إبراهيم . .

رأى فى طرف الشارع الصغير المؤدى إلى بيتهم . .

شبح رجل . .

نبه صديقيه . . انظرا . . أحدهم قادم . .

يبدو متجها نحونا . .

بدا أنه رجل شاب . .

قفز قلب إبراهيم وهو يراقب ساكنا ذلك الرجل الذى يقترب . .

بدا رامى ومحمد هما أيضا متجمدان بفعل قوة غريبة تشد أرجلهما إلى الأرض . .

الآن . . كان الرجل على بعد بضعة أمتار منهم . .

كانت له لحية . . شعر ناعم كستنائى فاتح . .

عينان كستنائيتان . . واسعتان . . واسعتان جدا . .

كان ينظر إليهم . .

انفعال . . دموع . .

ذهول . .

قوة مشاعر جياشة . .

مشاعر جياشة . .

واحدا بعد الآخر . .

أحيانا نشعر أن ما يَجْرى قد وقع من قبل مرات عديدة ، وبشكل ما يتكرر لمرات لا نهاية لها .

لكن الواقع أنه قد وقع فى رأسنا . . فى أحلامنا . .

فى رغباتنا . .

كم حلم إبراهيم بتلك اللحظة . . !

كم اشتاق إليها . . !

حدثت . .

حدثت . .

لكن ها هم جميعا لا يقوون على الحراك . .

صَدر عن محمد صوت حشرجة غريبة ومختلفة . .

رامى كان يفتح عينيه مندهشا . .

إبراهيم أحس بموجة عارمة تختلج قلبه وذهنه . .

هل كانت سعادة؟ !

هل كانت مفاجأة؟ !

الله أكبر . .

رأى رجلا يحدق فيه . .

رجلا طويلا جدا . . الوجه نحيف وشاحب، واللحية رفيعة، والأنف مقوس.

والعينان واسعتان غير متناسقتين . .

مع باقى ملامح الوجه . .

كان له هيئة رجل بشوش ودود . .

استمر يحدق فى إبراهيم، ولكن دون ريبة أو توجس . .

بل بشىء من الرقة . .

ورأى رجلا يحدق فيه . .

ورأى رجلا يحدق فيه . .

تذكر إبراهيم هذا الموقف الذى حدث قبل خمسة أعوام . .

لكنه كان واضحا تماما فى ذاكرته . .

واضحا تماما . .

تذكر إبراهيم هذا الموقف . . هذا الموقف وشعر بالدموع تهدد بالانهمار . .

كان ولدا ناحل الوجه . . حاد الملامح . .

ورأى نفسه وهو لا يزال بلا لحية . .

رأى شابين . .

يتقدمان فى الحياة بتردد شديد . .

رأى بداية كل شىء . .

رأى صداقة سامية . .

رأى وعدا قطع ثلاثة أعوام . .

«وسنناضل . . سنناضل حتى الموت» .

تواعدا على ألا يفترقا أبدا . .

ألا يفترقا أبدا . .

تواعدا على النضال حتى الموت . .

وألا يتخلى أحدهما عن الآخر . .

نضال نفس الموعد . .

لكنه الآن عاد .

لحظة أن اسـتطاع إبراهيـم الحـراك ، أطلق صـرخـة وارتمى على صديقه . .

وقع الاثنان على الأرض ضاحكين باكيين . .

ثم قام وتعانقا إلى حد الألم . .

ثم وقعا من جديد على الأرض . . قاما . . ضحكا . . شهقا . . قَبَّلا بعضهما . .

تأثُر . . إبراهيم كان يرتعش . .

نضال لم يعد يرى شيئا . .

تُغيم الدموع على عيونه . .

لما واتتهما القوة لأن يتوقفا عن العناق . .

ولأن ينظر كل واحد منهما إلى الآخر . .

كانا وكأن كل واحد منهما يشتم الآخر كجرو وأمه حين يتلاقيان .

نضال أصبح له لحية . . وصار أكثر نحولا . .

تغير وجهه . .

كما لو كان أكثر يقظة . .

أكثر نضجا . .

إبراهيم كان مشدود الوجه . .

مما أثَّر على نضال . .

هزه . .

أوجعه . .

أن يرى هذا البريق . .

ذاك البريق فى نظرة إبراهيم . .

الذى لازمه لزمن طويل مضى . .

كان قد اختفى . . أو ربما قد خبا . .

كان وجهه يوحى بنوع من الاستسلام .

من الألم المخنوق . .

من الحزن العاجز . .

كان إبراهيم خلال تلك السنين قد فقد شيئا ما . .

وفيما كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض . .

صرخ محمد كما لو كان يريد لفت الانتباه إليه . .

ارتمى على نضال . .

وعانقه . . وقبله . .

ثم كان دور رامى . .

ريهام التى سمعت أصواتا منتشية وصرخات التأثر . .

خرجت من البيت . .

لكنها تسمرت عند المدخل . .

شعرت بدوخة . .

ترنحت . . ثم استعادت اتزانها . . واستندت

على قائمة الباب . .

العينان فى العينين . .

بينما كان محمد ورامى وإبراهيم . .

يراقبون متجمدين . .

لحظة ساحرة . .

اللحظة الساحرة . .

نظرة مشبعة بالكلمات . . بالأحاسيس . .

حَلْق جاف . . صدغان ينبضان بجنون . .

قلب يدق متسارعا . .

وجه ريهام الجميل . .

تجرى عليه دمعة . . اثنتان . .

يدها على فمها . .

صرخة مخنوقة . .

نضال يكبح دموعه . . لا يجرؤ على الحراك . .

قلوبهم تبكى . .

قلبه يبكى . .

يشعر بألم فى قلبه . .

ينظر إليها . .

كم هى رائعة الجمال . .

رائعة الجمال . . !

لم يكن يتذكرها بهذا الجمال . .

شعرها الطويل . . ناعما كالحرير . .

عينيها الرماديتين . . الحادتين . . العميقتين . .

عينا نضال تغرق فيهما . .

تغرق فيهما . .

ونسيان حلو . .

نسيان حلو . . ومؤلم . .

يكتشف كل واحد الآخر . . ينظر كل واحد إلى الآخر . . يظلا هكذا برهة . .

تبدو دهرا . .

كما لو أن الوقت توقف . .

كما لو أنه توقف . .

ثم صرخة . . يبدو أن القلب لا يتحمل . .

انفعال حاد كهذا . .

سعادة كاملة كتلك . .

بينما الألم والغبطة يذوبان . .

بينما يتعانقان . . يتقاربان . . يُكَثَّفان . .

فى لفتة واحدة . .

أوجاع وآلام وعذابات . .

وأحزان وحنين . .

عامين . .

بينما الحب يسود تماما على كل المشاعر الأخرى . .

الإرهاق فى تلك اللحظة شديد وكأنه يدمر هشاشة . .

امرأة عاشقة . .

امرأة حلمت . . بكت . . رغبت . .

رجلها . .

امرأة اضطرت إلى طرح المشاعر جانبا و . .

نسيا أن الحب إحساس . .

بمثل تلك القوة . .

يسحب الأنفاس . .

يوقف ضربات القلب . .

ينتزع الحيوية . .

امرأة تبدو وكأنها نسيت .

إمكانية وجود شيء بمثل هذه الشدة . .

بداخلها . .

دموعا . . دموعا . . ألما . .

سعادة . . تأثرا . .

ثم خرج جهاد وأحمد . . رأيا نضالا . .

انطلق جهاد . .

نحو نضال . .

ضمه بقوة . . ضحك . . ضمه . . ضحك . .

انتحى أحمد جانبا . .

لم يعرف من هو هذا الرجل الطويل النحيف . .

الوجه النحيل المدبب . . العينين الواسعتين . .

لكنه كان حتما شخصا مهما للغاية . .

بكوا جميعا . .

بدوا جميعا أسرَى لإحساس جديد لم يعهدوه من قبل .

بدوا متأثرين بشعور قوى جدا . .

أحمد لم يعرف من كان هذا الرجل . .

لكنه فهم أنه كان حتما شخصا .

مُهما للغاية .

لزم الأمر الجميع عدة أشهر للتعود من جديد على وجود نضال .

في الصباح كانوا يستيقظون ويبحثون عنه بنظراتهم كما لو كانوا يريدون التأكد أن كل ما حدث كان حقيقيا فعلا . .

وأنه لم يكن حلما . .

وأن صديقهم نضال صار معهم من جديد . .

ريهام لم تكن تتركه لحظة . . كما أنه لم يكن يتكلم مع أحد سواها . .

جهاد وأحمد كانا يقضيان اليوم بطوله يتندران عليهما . .

محمد ورامى كانا مرحين وكأن عدوى سخرية ومزاح أحمد طالتهما . .

إبراهيم كان يشعر برغبة شديدة فى حمايتهما . .

وكان سعيدا لرؤيتهما متحدين هكذا وسعيدين هكذا . .

كما يكون الأب حين يرى أبناءه مرتاحين وفى أحسن حال . .

انتقلت الحرب الآن إلى الخطة الثانية . . كانوا جميعهم يجاهدون ألا يروا . . أو بمعنى أصح . . أن يتظاهروا بعدم رؤية الجنود

ودبابات الاحتلال والأسلحة . . كل ما كان يهمهم الآن هو أن يكونوا معا . .

إبراهيم ومحمد صنعا سريرين جديدين . .

فقد صارت عائلتهما الآن أكثر عددا . .

فى ٢١ أبريل ١٩٩٩ ، ريهام ونضال تزوجا . .

كان يوما سعيدا جدا . . واستمر الاحتفال حتى صباح اليوم التالى . .

ترك محمد حجرته - أكبر واحدة فى البيت - للزوجين . .

نظفاها حتى صارت تلمع وزيناها بالورود . .

اشتريا سريرا كبيرا ومرآة للزينة . .

نَقل محمد سريره إلى حجرة رامى وإبراهيم . .

بينما كان أحمد وجهاد ينامان فى حجرة صغيرة جدرانها تغطيها لوحات بها آيات من القرآن الكريم .

وجد نضال عملا عند وكيل للسيارات . . وأحمد عند ميكانيكى . . وجهاد فى مطعم . .

استمرت الحياة . .

وآخر عضو فى أسرتهم - الأصغر سنا - انضم إليهم فى سبتمبر . . وجدوه فى الشارع . . كان يتسول ضاحكا . . كان يتسول ضاحكا . . كان كله متسخا . . كان لديه سنتان مكسورتان . . شعره أشعث . . يبدو كالمهرج . . كان اسمه وليد . . كان فى الثالثة عشرة من عمره . . كان صغيرا جدا . . كان يتسول منذ سن السابعة . . قضى نصف حياته فى الشوارع . . لكنه أخيرا وجد أسرة . . الأسرة التى حُرم منها طوال حياته . . كان اسمه وليد . . كان فى الثالثة عشرة .

ثلاثـــة

إنها ليلة باردة . . بدر مكتمل الاستدارة . . نجوم لا تحصى . . تبدو وكأنها نمش فى الوجه . .

إبراهيم يسحب نفسا من سيجارته . .

يفكر . . يتذكر . . إنها ليلة عجيبة . . يتغلب عليه فيها الحنين . .

يجرفه الحنين إلى كل شىء . .

يتذكر أشياء كثيرة . . بدءا بأمه . . لا يتذكر وجهها . . ولا حتى معه صورة لها . . أبوه كانَ الصلة الوحيدة التى تربطه بالماضى وبأمه بالتالى . . مَرة واحدة فقط رأى لها صورة . . كانت صورة الزفاف . .

كانت رائعة الجمال . .

رائعة الجمال . .

إبراهيم يتذكر وجه أبيه . .

ذاك الوجه يتذكره جيدا . .

يراه كل الليالى . .

ثم ذلك اليوم المشئوم . . الدم . . المصحف . . كل شىء شديد الوضوح فى ذاكرته . .

لا يعرف إن كان هذا خيرا أم شرا . .

اللقاء مع نضال . . ثم جهاد وريهام . .

ومحمد ورامى . .

أحمد . .

عودة نضال . .

وأخيرا وليد . .

يقطع هدوء الليلة دوى . .

دوى مدافع كلاشينكوف . .

فى القرى المجاورة يزاول الجنود الإسرائيليون هجماتهم المعتادة . .

الجيش يتدخل بالمدفعية الثقيلة . .

يبدو ذلك غير معقول . .

غير معقول . .

إنه على بعد بضع كيلومترات من البيت . .

يشتعل العنف والحقد هكذا . .

تقوم الحرب . .

على مسافة صغيرة من حيث تجلس وتتناول الشاى . .

مع أصدقائك . .

يخرج أحمد إلى الشرفة . . يبتسم لرؤية نظرة إبراهيم الشاردة . .
ضائعة فى الفراغ . .

يقول له . .

لطالما تساءلت فيما تفكر ـ حقا ـ حين تكون شاردا هكذا . .

ينتشل إبراهيم نفسه من أفكاره . .

يبتسم بالكاد ويجيب . .

فى أشياء كثيرة . .

أفكر فى أشياء كثيرة . .

أفكر فى أن انتفاضتنا مضى عليها عام الآن . .

لكن الشيء الوحيد الذى حصلنا عليه هو عدد مفزع من القتلى . .

أفكر فى يوم ٣٠ سبتمبر من العام الماضى . .

عندما قُتل ذاك الصبى . .

محمد الدرة . .

ولما أجرى الجندى الذى قَتل الصغير حديثا صحفيا . . قال إنه أبقى على الأب حيا حتى يعذبه . . هذا ما قاله . . قَتلت الابن وتركت الأب حيا حتى أعذبه . .

هكذا . . يبدو أن ما قاله الجندى لايزعج أحدا سواى . . باقى العالم لا يبالى . . رأى الناس هو أن الأمر لا يتعدى ضحية صغيرة من ضحايا كثيرة . .

هكذا . . وأقول لنفسى . . هل أحسب للرأى العام وزنا بعد ذلك؟ حسنا . . أعتقد أن الإجابه بلا . . يقولها إبراهيم وعلى وجهه ابتسامة مُرة . .

أتساءل عن رأى سائر العالم . .

ما الذى يبثونه عبر شاشة التليفزيون لشباب الغرب؟ ما هو رأيهم فيما يحدث؟ أيعنيهم أن الناس يموتون هنا؟ هذا ما أفكر فيه . . من بين أشياء أخرى كثيرة . . ثم يسكت . . يسحب نفسا آخر ، . . ملتفتا إلى أحمد . . يقول له : متأملا فى ظلم الليل . . يحاول أن ينتزع ابتسامة . .

وأنت فيم تفكر؟

فينظر إليه أحمد . . يبتسم هو الآخر وتلمع عيناه . .

كنت أفكر أنه يمكننى البقاء ـ هنا ـ أقرأ حتى نهاية العالم . .

لكن فى الواقع الشيء الوحيد الذى يهمنى هو أنتم . .

هو أنت . .

كنت أفكر أنك منحتنى أسرة . . أنك أنت أسرتى . . وأنه . . ربما لن يسعنى أن أقولها لك بالقدر الكافى . . إننى حقا أحبك . . وأنه فى النهاية . . ربما فى يوم ما لن نكون معا ولن أستطيع أن أقول لك . . شكرا . . شكرا . . لكل ما فعلته من أجلى . .

لو قُدِّر لهذه الحرب أن تنتهى يوما . . ولو قُدر لنا استرداد أرضنا . . لو يوما استطعنا تخطى كل هذا العنف . . حسنا . . سأحب أن تكون ساعتها بجانبى . . وأن أقول لك . .

أترى . . لقد نجحنا . .

لقد نجحنا . .

يسكت أحمد . .

يتفحص يديه . . خَجِلا لا شك . .

حين تكون رجلا يكون ذلك صعبا . .

صعبا . .

أن تترك نفسك على سجيتها وأن تعترف أن قلبك يُدفئه إحساس رقيق هكذا . . يتخطى كل ألم . . فإنه الحب . .

الحب . .

ينظر كل منهما إلى الآخر . .

يتذكر إبراهيم أول مَرة وعَده فيها بشيء . . أول مَرة كَذب فيها عليه . .

كان ذلك بخصوص أشجان . . قال له . .

إنها ستنجو يا أحمد . . ستنجو . .

والآن لا يريد أن يَعد أحمد بأنه حين يأتى هذا اليوم سيكونان هما الاثنان هنا وأنهما سيكونان معا . .

لأنه يعلم أن ذلك قد لا يكون صحيحا . .

فيكتفى بالابتسام له ثانية . .

ويخفض عينيه . .

إبراهيم يشعر بأنه سار شيخا مسنا . .

شيء غريب . . لأنه فى الحقيقة لا يبلغ إلا الواحدة والثلاثين . .

اللعنة . . يشعر بالغضب حين يفكر فى ذلك . . ليس إلا فى الواحدة والثلاثين ومن الأجدر به أن يستمتع بالأشياء الجميلة فى الحياة وأن يبتسم أكثر . .

بدلا من ذلك . . يعيش مع سبعة أصدقاء ويخاف عليهم كل يوم . . كل يوم . . وكل مساء يخرج إلى الشرفة وينظر للسماء . . للقمر . . إلى القبة الزرقاء . . يندهش أن هذا اليوم أيضا قد مَر دون أن يحدث مكروه لأى من الأشخاص الذين يحبهم . .

إبراهيم يفكر فى الفتاة التى قابلها منذ بضع سنوات . . ياسمين . . التى كانت تتكلم عن السلام بكل اقتناع . .

يتمنى أن الناس . . كل الناس فى أنحاء العالم . . يفكرون مثل ياسمين . .

سيتم إنقاذ الكثير من الضحايا . .

دوى يخترق سكون الليل . .

ويُذَكِّر إبراهيم بأن الوقت متأخر جدا على مثل هذه الأفكار .

- رامى . . كفى . . تبا لك . . ألا يجدر بك المساعدة فى أعمال البيت بدلا من الشجار طوال الوقت مع جهاد؟

- اسمعى يا ريهام . . إذا استمر أخوك فى استفزازى . . فكيف تظنين أن يكون رد فعلى؟

- اذهب إذن لنداء إبراهيم وأحمد . . لابد أنهما بالشرفة! ثم انتبه إلى الماء . . لو رأيته يغلى . .

- أعرف كيف يُصنع الشاى يا ريهام!

- حسنا . . حسنا . . سأخرج لإلقاء القمامة .

- إبراهيم . . أحمد! ريهام تقول لكما أن تدخلا!

- حسنا . . سنأتى . . دقيقة واحدة فقط!

- جهاد! توقف عن التصرف بحماقة! واحضر لى الشاى!

- لِمَ لا تأت أنت لأخذه يا محمد؟ ماذا هنالك . . هل استعبدتنى؟

- جهاد . . أنا لستُ فى حالة جيدة! إن أثرت غضبى .

- ماذا . . إن أثرت غضبك؟ ماذا ستفعل . . هه؟ ستضربنى؟ ستركلنى؟ أنا سأنادى لك على أختى وسَأنَوّلك ضربـ . . آآآه! ابتعد عنى! أفففف! كم أنك ثقيل! قُم من هنا . . كلا! إلا الدغدغة . . كلا! ريهاااام! آآآه . . إمش يا محمد . . آآآه . . آه . . لا تفعل هذا! لا تدغدغنى! قُم من هنا!

- هه . . أنتما الاثنان . . ماذا تفعلان؟

- هو الذى بدأ يا ريهام! لقد انقض علىّ بكتلة شحمه الضخمة!

- شحم! أنا! كل ما فىّ عضلات يا غبى!

- كفى . . ما هذا العراك؟ وأنت يا محمد . . ماذا تفعل فوق جهاد؟

- أووووه . . لا شىء يا إبراهيم . . كنا . . نتحدث .

ـ لا تؤاخذنى . . لكن هل تحتاج لأن تكون فوقه حتى تتحدث؟

ـ أنت . . أحمد . . لا تتدخل فيما لا يعنيك!

ـ حبيبتى . . أين الشاى؟ هه . . لكن ما الذى تفعلاه أنتما الاثنان؟

ـ هه . . لم يبق سوى نضال! حسنا . . سنصفى حساباتنا مرة أخرى نحن الاثنان . . ريهام . . هل يمكن أن تصبى لنا الشاى؟

ـ حسنا . . حسنا . . سأحضره . . سأحضره حالا . .

ـ يا أولاد . . يا له من اجتماع غير عادى! كلنا جالسين!

ـ هه . . أيها الأبله . . كنت هنا قَبْلُك!

ـ اسمع يا جهاد إن لم تتحرك سأقول لمحمد أن يصفى حسابه . .

ـ لا لا . . محمد كلا! هيا تعال يا رامى . . اجلس على الأريكة . . أنا سأجلس هنا .

ـ ها هو الشاى! امسك يا حبيبى . إبراهيم . . الكوب ذو ملعقتىّ السكر هو لأحمد . وليد . . هذا كوبك . جهاد . . توقف عن الهراء أنت ورامى . محمد . . هذا لك . . وناول الآخر لرامى . وهذا لى . تماما .

ـ حسنا . . بما أن الكل معه كوبه الآن . . أأستطيع أن أبدأ الاجتماع؟

ـ اجتماع! أى اجتماع؟

ـ صه يا ريهام! إبراهيم دعانا إلى اجتماع طارئ . .

ـ بالضبط . . اجتماع طارئ . . حسنا يا أولاد . . سأدخل فى الموضوع

مباشرة: هذا الشهر هناك مشكلة ما فى الحسابات. . دفعنا الإيجار. . ومصاريف التسوق. . والماء أيضا. . لكن إن لم ندفع الكهرباء سيقطعونها عنا. للأسف وضعت راتبى كله فى دفع الإيجار لذا فأنا مضطر لأخذ كل ما بَقِى معكم من نقود وإلا سينقطع عنا التيار قريبا.

- حسنا. . وكأن الأمر سيختلف إن دفعنا! الماء دفعناه. . ومع ذلك لا يصل. . ولزم الأمر أن نذهب لإحضاره من البئر! فى الحالة التى وصلنا إليها الآن. . سواء دفعنا فواتيرنا أم لا. . يوما ما سينقطع النور!

- أنا أيضا أوافق جهاد. . لعل الأمر لا يستحق الدفع يا إبراهيم. .

- ما الذى تقوله يا محمد؟ نحن نحتاج الكهرباء. . لا يَسعْنا تركها تنقطع عنا!

- نعم يا أولاد. . إبراهيم على حق. . نحن نحتاج إلى الكهرباء. . فهيا أخْرِجوا المال.

- حسنا. . حسنا. . سأعطيكم ما بقى من راتبى. على أية حال. . ما يعطونى إياه فى المحل ليس بالكثير.

- غدا سيدفعون لى راتبى فى الورشة. سأعطيكم نصفه.

- حسنا أرى أننا متفقون. شكرا يا نضال. . وشكرا يا أحمد. . الآن. . ننتقل إلى البند الثانى الخاص بوليد. . يجب أن يذهب إلى المدرسة. . فليس من المعقول ألا يحصل - على الأقل - على شهادة التعليم الأساسى.

ـ هه . . لحظة . . أنا لا أريد أن أذهب إلى المدرســـة! أنا هكذا فى أحسن حال!

ـ وليد لا تتصرف مثل الأطفال! يجب أن تحصل على حد أدنى من التعليم . . يجب أن تتعلم الحساب والجغرافيا والتاريخ . . وكل المواد الأخرى .

ـ لقد درسنا كلنا حتى المرحلة المتوسطة على الأقل . . التعليم شىء أساسى لكل الناس . لذا ستذهب إلى المدرسة . . على أية حال لقد اُتُّخِذ القرار . . كل ما يبقى فى الأمر هو تحديد المكان .

ـ لكنى لا أرغب فى الذهاب إلى المدرسة! لقد قضيت كل حياتى فى الشارع . . ماذا سأفعل أنا فى المدرسة؟

ـ ستتعلم! وكفى لغوا!

ـ اسمع يا إبراهيم . . عندى فكرة . . لا أظن أنه يمكنك إرساله إلى المدرسة دون أن تكون لديه على الأقل فكرة مبدئية . . فبما أننى الوحيدة هنا التى لا تعمل . . وأننى لا أفعل شيئا سوى ترقيع الجوارب وإعداد الطعام وترتيب الحجرات . . أستطيع أن أعطيه دروسا وحتى لمدة ست أو سبع ساعات فى اليوم . سنشترى بعض الكتب . . وسأعلمه بعض الأشياء . . وفى العام القادم نسجله فى المدرسة الإعدادية فوليد ـ فى الواقع ـ لا يعرف لا القراءة ولا الكتابة .

ـ ريهام على حق يا إبراهيم . لا يمكنك إرسال أمّى إلى المدرسة . ثم إنها بهذا الشكل سيكون لديها شىء لتفعله بدلا من ترقيع الجوارب على حد قولها . على كل حال . . أنا لم أعْطِك أبدا أية جوارب لخياطتها .

- بالطبع يا عزيزى . . فأنت تتركها مثقوبة فى الدولاب! وأنا التى أخرجها وأصلحها لك! أيا كان الأمر . . لا تفكر فى هذا الأمر يا إبراهيم .

- حسنا . . حسنا . . أنتما بلا شك على حق . . فليكن . . سنمنحه فرصة عام .

- لا لا ثم لا ! أنا لن أذهب إلى المدرسة ولو بعد مائة عام! ثم انسوا تماما أن تُدَرِّس لى هذه المجنونة ريهام .

- ماذا قُلت عنى؟ أيها الملعون!

- اهدئى يا ريهام . ليس سوى غلام صغير . . إنه يمزح . لكن قُل لى إذن . . من أين لك تلك الكراهية للمدرسة؟

- لا أريد إضاعة وقتى فى الاستماع إلى مُدرس عبيط! أريد قتل الجنود . . قذف الحجارة عليهم . . والإيقاع بأكبر عدد منهم . . أريد قتلهم كلهم و . .

- وليد! ماذا تقول؟ ما هذه الأفكار؟ أنا الذى سأقتلك أيها الأبله! تعال هنا . . وشرفى لألقنك درسا! أيها الملعون!

- اهدأ يا إبراهيم! كفى . . ماذا دهاك؟ ما هذا العنف؟ لم أرك قط فى مثل هذا الغضب!

- لكن . . ألم تسمعه يا نضال؟ إنه يتكلم مثل سفاح! هذا السيد

المحترم لا يهمه التعليم فى شىء . . لا . . بل كل ما يهمه هو قتل الجنود! أفَهمت هذا الصبى؟ لكنى سأعرف كيف أمحو هذه الأفكار من رأسهاَ اسمعنى جيدا يا وليد . . فى هذا البيت، نحن نريد السلام . . نريد أيضا أن ننتصر . . ونحن نعرف أنه لكى ننتصر يجب أحيانا اللجوء للعنف . . وأنه يجب فى أحيان كثيرة الرد على العدو بالمثل . لكن هذا ليس دورك أنت . . عليك أن تدرس فقط . . أن تكبر . عليك أن تدعو الله . . ليس من شأنك رمى الحجارة وقتل الجنود! اطرح هذه الأفكار من رأسك!

ـ لكن هذا ما كان أبى ليريده لو كان حيا! كل الأولاد فى الشارع يرمون الحجارة!

ـ ربما أن هؤلاء الأولاد ليس لهم أهل . . أما أنت فعلى العكس . . نحن أهلك . . ولا نريدك أن تذهب للقيام بمثل هذه الأشياء . لهذا فمن الغد ستتلقى دروسك من ريهام . انتهى النقاش .

إبراهيم لا يزال يشعر بالغضب يضطرم بداخله . .

ينهض . . يخرج من جديد إلى الشرفة . .

بينما يبقى أصحابه فى الصالون مذهولون لا يتحركون . .

كان رد فعل إبراهيم عنيفا . .

لو لم يُوقفه نضال لكان قد صَفع وليد على الأغلب . . وقد أذهلهم ذلك لأن إبراهيم كان دائما طيبا جدا ولطيفا مع الكل . . وخاصة مع الصبى . .

إبراهيم عصبى ومُستَفَز . .

لا يتحمل رؤية غلام فى الخامسة عشرة من عمره . .

وأكثر من ذلك . . غلام هو شخصيا مسئول عنه . .

يريد تكريس حياته لقتل الناس . .

يُمسك إبراهيم برأسه بين يديه . . ويبقى ساكنا لدقائق . .

ثم يدلف إلى الداخل ويعتذر لرفاقه . .

يدير ظهره لهم ويذهب للنوم .

- إبراهيم! إبراهيم!

- م؟

- هل أنت مستيقظ؟

- نعم . . أقصد . . الآن نعم . . ماذا حدث يا نضال؟

- أريد أن أتحدث معك يا إبراهيم .

- فى الثالثة صباحا؟

- هل تُفَضِّل أن نتكلم غدا؟

- حسنا . . الآن . . انتظر حتى ألبس شيئا . . انتظرنى بالخارج . .

- اتفقنا .

- لكن . . ما هذا الجنون . . توقظنى فى الثالثة صباحا لتتحدث معى . .

ـ أتأتى أم لا؟

ـ نعم يا نضال أنا قادم . . أففف . . هأنا قادم . . هأنا . ماذا إذن؟

ـ اجلس .

ـ حسنا . قل لى .

ـ الأمر يخصنى أنا وريهام . تَعْرف أننا تزوجنا منذ عامين . . و . . حسنا . . مَر علينا عامان ونحن نحاول إنجاب طفل .

ـ نعم . . بالطبع . وماذا بعد؟

ـ بالأمس ذهبنا إلى الطبيب . أتعرف يا إبراهيم أنها تعانى منذ فترة من الغثيان والدوار المستمر؟

ـ نعم . . ثم؟

ـ كيف . . ألم تفهم بعد؟

ـ لا . ما علاقة الطبيب بالموضوع؟

ـ أنت فعلا بطىء الفهم! إبراهيم . . ريهام حُبلى فى الشهر الثانى .

ـ ماذا؟ حبلى؟ لكن . . حبلى . . أنت متأكد؟ الحمد لله! هذا فعلا خبر جميل! شىء مضحك . . نضال سيصبح أبا! آآآه . . خبر رائع بالفعل! . . لا أستطيع أن أتخيل هذا! ولمَ لم تبلغا الجميع ليلة أمس؟

ـ لابد أن ريهام قد بذلت مجهودا كبيرا . . لا أدرى . . كنت أريدك أن تعرف الخبر قبل الآخرين بقليل . هكذا . . يا له من خبر رائع . .

- أكيد! لكن . . هل هو ولد أم بنت؟

- يا إبراهيم . . إنه فقط الشهر الثانى! لا يمكنها أن تعرف الآن!

- أووه . . ياربى . نضال أصبح أبا أخيرا! أليس هذا درب من الجنون! وأنت الذى كنت تقول إنك لن تفلح فى ذلك أبدا! أتصور كم ستكون ريهام سعيدة!

- فى الواقع هى لا تتوقف عن الحديث عن كل الأشياء التى يجب شراؤها للطفل، وبدأت بالفعل فى تفصيل بعض الملابس . الشىء الوحيد . . حسنا . . فى مثل هذه الفترة المضطربة . . أتساءل إن كان من الصواب إنجاب طفل . إننا . . أعرف أنه شىء حزين . . وأنه فظيع أن أنطق به . . لكن أنا وريهام ربما لانكون موجودين هنا بالغد . . لا يمكننا ضمان مستقبل ثابت وآمن لطفلنا . هل يحق لنا ولادة طفل من شأنه حين يكبر أن يصير نسخة مطابقة لوليد . . يملأه الحقد والكره والعنف؟ هل يحق لنا ذلك؟

- أفهم ما تريد أن تقوله يا نضال . لكن يجب أن نخرج من تلك الحرب . . والسبيل الوحيد لذلك هو أن نحاول أن نعيش حياة طبيعية، وأن نحيط أنفسنا بتصرفات . . وأفعال . . وأوقات طبيعية . أنت تريد طفلا يا نضال . . حسنا . . وأنا أقول لك إن هذا من حقك . لكن واجبك سيكون أن تربيه على مبادئ صلبة . . وإن كنت لا تريده أن يصبح نسخة من كل هؤلاء الصبية الساخطين . . علّمه طريق الله ووجّه نفسه إلى طريق السلام والإيمان . . ولا تخضع للحرب . إنه شىء جميل جدا يا نضال . . خبر مدهش . . صدقنى! انتظر حتى ترى عندما يعرف الآخرون ذلك!

ـ أنـا . . شكرا يا إبراهـيم . أعتقـد أنك عـلى حق . أريد أن أشكرك يا إبراهيم . . فـهـا هى ثمانيـة أعـوام منذ تعـارَفْنا . . وهـا هى ثمـانيـة أعوام وأنت صديقى . . بلا تحفظات . . ولم تَخُنى أبدا .

ـ كفى وإلا سأبكى .

ـ لا . . حقا . . لم تسألنى أبدا عما فعلته خلال العامين الذين قضيتهما بعيدا عنكم . حسنا . . خلال هذين العـامين حاولت إبعـاد نفسى عن رباط بَدا لى عـميـقا جـدا . . أصيـلا جدا . كـانت تلك طريقـتى فى الاستسلام للحـرب . . لكنى خرجت من تلك الحالة عندما عُدْت إلى جواركم . . ولا أريد أن أقع فيها ثانية . أحبك بحق يا إبراهيم . . أنت تعنى بالنسبة لى كل شىء . . فَقَدْت أمى وأختى . . أبى لم يَعُد أبدا من سـوريا . . ولا أدرى حـتى إن كـان لا يزال حـيـا . والآن أنا أحـاول إعـادة بناء حـيـاتى من جـديد . . وأنـت الركـيزة التى عليـهـا أستند . أحبك بحق .

ـ أنا أيضا يا نضال . مهما حدث ، ستدوم صداقتنا إلى الأبد .

ـ إبراهيم ! إبراهيم ! استيقظ . . أسرع . . أسرع !

ـ إبراهيم !

ـ آآآه . . ماذا . . ؟

ـ إبراهيم . . استيقظ !

- آآآه . . كفى يا غبى! امش!

- إنها حالة طوارئ! يا غبى، استيقظ! الجنود . . أسرع!

- جنود؟ كيف هذا؟ أين؟

- اصحِ يا إبراهيم!

- لكن . . نضال . . ماذا يحدث؟

- جنود إسرائيليون! على بعد سبعمائة أو ثمانمائة متر من هنا! حوالى عشرة! هناك عراك . . وليد استفزهم! قُم!

لا فائدة . . إبراهيم كان قد وقف بالفعل . . وقف قافزا نحو الغرفة التى ينام فيها أحمد ومحمد ورامى . . قفز . . اذهب إلى حقيبة أحمد . . افتحها - لا فائدة . . كان يعرف هذا - لا شىء . . المسدس ليس موجودا فيها . . يجرى نحو الباب . . يتعثر . . يقع . . تصطدم ركبته بشدة . . لكنه يرفع نفسه . . يرفع نفسه . . يجرى . . يجرى . . يشعر بأنفاس نضال بجانبه . . ثم يلتفت لحظة . . ينظر إلى نضال: «زوجتك . . أين زوجتك؟» . . لكن نضالا يومئ برأسه كأنه يقول إنها فى أمان . . لا تقلق . . يجريان . . أخيرا يصلان . . يريان . . طلقات نارية . . صراخ . . عربات مقلوبة تحمى خلفها الأولاد والرجال . . الجنود والرشاشات فى أيديهم . . بالجانب الآخر . . يطلقون الرصاص بشكل عشوائى . . وتَرى الرميات الصائبة . . يُصيب حجر جنديا فى رأسه . . يسقط الجندى . . يسحبه زميله جانبا . . ويُطلق الرصاص صوب الرجل الذى ألقى الحجر . . يصيبه فى ذراعه . . يجنح الرجل . . يأخذ حجرا آخر . . ويقذفه باليد اليمنى . . ثم يحتمى خلف سيارة «فيات» . . إبراهيم يرى وليد على

الأرض. . محمد ورامى وجهاد حوله. . هل حالته خطرة؟ خطرة؟ لا. . لا يمكن أن تكون خطرة. . هذا مستحيل. . لا يتنفس. . اجر. . الأمر خطير. . اجر. . اضطراب. . دماء كثيرة. . وليد على الأرض ,على الأرض، دماء، دماء. . الشفاه الجافة تتحرك ـ كيف؟ كيف؟ ـ هل يمكن أن تقول لى ماذا يحدث. . و يسمع كلمة. . كلمة واحدة. . وسط ضجيج وجلبة المعركة. . تَسمع هذه الكلمة الصغيرة بوضوح. .

ماما. .

وتستمر الحرب. .

يا إلهى. .

انتبه. . لا. . غَطِّه. . أسرع. . احمله إلى الداخل. . محمد يُصيب جنديا. . يَقع. . يقع. . يقوم. . يطلق النار. . طلقة فى الهواء. . رامى يرميه بحجر آخر. . يُصيبه فى عينيه. . يَرفع يدا إلى عينه ويرميه جهاد بحجر. . يُصيبه فى رأسه. . يَقع. . يقع لكنه لايقوم ثانية. . ثم يُسمع صوت طلقة. . طلقة. . إنه رشاش. . صراخ. . رامى يقع على الأرض. . لا! لا!!!. . أحدهم يصرخ. . إنه إبراهيم. . إبراهيم. . اللعنة. . إنه إبراهيم. . انتبه. .

يمسك رامى ساقه الملطخة بالدماء . . لا شىء . . لا شىء . . الساق فقط . .

الساق فقط؟

وإن أصابتك الغرغرينة أيها الأبله . . أُطلبوا الإسعاف . . يا إلهى . . الإسعاف . . محمد معه هاتف محمول . . ينقل وليد ورامى إلى البيت ـ الله أعلم كيف ـ ويطلب الإسعاف . . يطلبه . . على عجل . . أسرعوا . . أرجوكم . . الحالة خطرة . . الجرحى كثيرون . . نضال يرمى الحجارة بكل قوته . . يرمى . . يرمى . . بسرعة . . بحركة حثيثة . . بثقة . . بثبات . . لديه قوة فى ذراعه . . قوة كبيرة . . اثنان . . جنديان . . يصيب اثنين منهم . . إنه محظوظ . . الرصاص لا يصيبه إلا بخدش . . فى اليد . . لكنه محظوظ لأنهم يصوبون باتجاهه عدة مرات دون أن يصيبوه . . حجارة . . حجارة أكثر . .

قوة فى ذراعه . .

إبراهيم لا يشعر حتى بالحركة المستمرة . . السريعة . . شبه الآلية . . التقطِ . . صَوب . . إرم . .

التقط . . صوب . . ارم . .

اقذف . .

التقط . .

اقذف . .

اقذف . .

اقذف . .

كـانوا خـائفين . . كلهـم . . يجب أن يكـونوا جـمـيـعـا يقظين . . يقظين . .

أُقتل قبل أن يَقتلوك . .

الوضع خطر . .

خوف . .

اقذف . .

إبراهـيم يكتـشف أنـه أوقـع بأربعـة أو بخمسة . . لا بـأس . . لا بأس . .

المشكلة أنهم بعد ذلك ينهضون من جديد . .

الله . . يدعو الله . .

باسم الله الرحمن الرحيم . .

خوف . .

لكن أين أحـمـد؟ أين هو؟ ثم ها هو . . أنت تَرْصُـد مكانه . . هو هنا . . لكن ماذا يحدث . . يلتف حول السيارة . . المخبأ . . يَقف على بعد عشرين مترا منهم . . أقل . . ويَضرب . . يضرب . . أربع طلقات نارية . . أربعة جنود يسقطون . . وفى الوقت الذى تستعد فيه الخامسة للانطلاق . . سيَفعل . . حسنا . . سيَضرب . . تختلج عينه . . ماذا بها؟ ماذا أصابه؟ الشفتان مزمومتان . . العين تبرق . . اليد ثابتة . . ثابتة؟ لا . . إنها ترتعش . . ترتعش - يبدو ذلك غير

معقول لكن . . لمدة دقيقة . . يتوقفون كلهم عن القتال ويلاحظون يَدا ترتعش . .

اليد التى ترتعش . .

ترتعش . .

ارتجاف . .

تَهُزّه حركات صغيرة تتعاقب بسرعة . .

تُحرِّكه تذبذبات صغيرة . .

يَضطرب داخليا . .

اليد . . العين . .

إنه يرتعش . .

تنطلق الرصاصة . . تنطلق . . لا . . ليست رصاصة . . بل اثنتين . . كيف يمكن ذلك؟ كيف يمكن ذلك؟ مسدس واحد . . فى لحظة واحدة . . رصاصتين؟ كيف يمكن ذلك . . لا . . لا يمكن ذلك علميا . . هناك خطأ ما . . لا . . لأنه ليس هناك مسدس واحد . . بل اثنين . . أو بالأحرى . . مسدس وبندقية . .

مسدس مسروق من جندى إسرائيلى مقتول . .

والبندقية تحمل عبارة «صنع فى أمريكا» . . وَصَلَت قبل شهر . .

تَخُص جنديا إسرائيليا . .

واحد وعشرون عاما . . جون كونيجسبرج . . تصويب ممتاز . . براعة فريدة . .

إنه موهوب فى الرماية . .

موهوب . .

قبل انخراطه فى الخدمة العسكرية لم يكن يقدر حتى على لمس لوحات التصويب فى ألعاب الملاهى . .

الآن تصويبه ممتاز . .

يُطلق النار . . يُسمع صوت طلقتين . . واحدة فى الهواء . . فى الهواء . . أيهما؟ التى صوبها أحمد . .

الثانية تصيب الهدف . . تصيب الهدف . . أيهما؟ التى صوبت نحو أحمد . .

نحو أحمد . .

الشريان السُّباتىّ . .

غريب . . لأن الطبيب سيقول فيما بعد أن الرصاصة أصابت الشريان السباتى فى مقتل . . اخترقته . .

خرجت من الناحية الأخرى . .

تَصويب ممتاز . .

أحمد سقط . . أحمد يسقط . . جسده الخفيف . . جسد حالم . . جسد مُفكر . . شخص كان يحب القراءة ـ بشدة ـ . شخص كان يقرأ ـ دائما ـ . كان فى الثالثة والعشرين من عمره . . أحمد كان أصغرهم سنا بعد وليد . . كانت عنده أحلام كثيرة ـ كان يريد أن يؤلف كتابا . . يسافر . . يتزوج . . وينجب أطفالا كثيرين . . ينتصر . . ينتصر . .

ويعيش فى سلام على أرضه . . كان يريد فقط أن يعيش . . لم يكن يريد أن يفوز الفريق الوطنى الفلسطينى بكأس العالم ولا أن توسع الحكومة الفلسطينية من أراضيها . . كل ما حصل عليه هو رصاصة فى الشريان السباتى . . الثالثة والعشرون ربيعا . . الأربعة الأواخر مروا فى ظل الصمت . . إنها الحرب . . هلاك أبدى . . الحرب . . أحمد يسقط .

جنون . . هذيان . . إبراهيم بطل لمأساة . .

كان أحمد يعتبرها من الشكسبيريات . .

هاملت الذى يهذى . . الذى يهرب . . الذى يصرخ . .

الغضب الذى يخترق الجلد . .

داخل الروح . .

ويخدشها .

كان أحمد يقرأ . .

ولو كان إبراهيم أيضا قد قرأ هاملت . .

لكان عرف لا محالة . .

أن الجنون . .

لا يخرج منه أحد .

أوقات يكون الفهم فيها صعبا . . صعبا ـ لماذا ـ . ولربما . . ربما . .
يمكن فيها الاختفاء . . الاختفاء . . لأن المشاعر . . الأحاسيس . .
تكون قوية جدا ـ قوية ـ ولا شك أنه لا يمكن معها الصمود . . هلاك
أبدى . . هلاك أبدى . . صُوَر . . ذكريات . . شىء ما . . أشياء . .
أشياء . . لا أشخاص . . أشخاص . . أنت تَتوق ليَد . . لحضن . .
لعناق . . لقُبلة . . للشخص . . لا للأشياء ـ لم يكَن إلا فَى الثالثة
والعشرينَ من عمره ـ ووالديه؟ والديه أين يمكن أن يكونا؟ لماذا؟ هل
هناك والدان بالفعل؟ أحمد كان معهم منذ خمس سنوات . .
خمس . . ولم يتكلم أبدا ـ أبدا ـ عن أسرته . . لكن هل كانت هناك
أسرة بالفعل؟ . . هلاك أبدى . . ليس عدلاً . . لو كانت هناك
أسرة . . خطأ ألاَّ يصلها الخبر . . أم . . أب . . كان يجب أن يعرفا . .
أليس كذلك؟ سيكون ذلك من الصواب . . لكنهم لا يعرفون شيئا
عن أحمد . . اللهم سوى سنه واسمه . . وأنه كان يحب القراءة . .
أسرة؟ ماضى؟ . . لا شكرا . َ فىَ هذا البيت . . لم يكن أحد نافعا فى
شىء . . كان يكفى الرغبة فى الانتصار . . فى القتال . . كان يكفى
أنهم شباب وشجعان . . كانوا كلهم متحابين بعضهم البعض . .
كانوا كلهم متفاهمين . . لكنهم لم يسألوا شيئا عن الماضى . . لا . .
لأن كل واحد منهم كان ما هو عليه . . لا يهم الماضى ولا حتى
المستقبل . . فقط الحاضر . . ورغم ذلك . . رغم ذلك كانوا يعرفون
بعضهم البعض تمام المعرفة . . وكانوا يثقون فى بعضهم البعض . .
بشكل غير معقول ـ لماذا؟ ـ . ليست هناك إجابة . . ربما . . يا إلهى . .
ربما . . لو أن إبراهيم كان قد استيقظ قبل ذلك؟ . . لكن لماذا تأخر
هكذا . . لماذا بهذا الشكل . . لا أحد يعرف . . لا أحد يفهم . . ـ
رباه . . لم يكن إلا فى الخامسة عشرة من عمره ـ لكم أتمنى الآن ألا

أكون قد صفعته هاتين الصفعتين. . أو حتى تركته يدخن. . فماذا كان في ذلك على أية حال؟ ماذا كان في ذلك. . القليل من النيكوتين؟ لا شيء. . لو فكرت أنه الآن لم يَعُد موجودا. . لم يعد موجودا. . ريهام؟ ريهام أين هي؟ دم. . حقا. . لماذا؟ لا. . القلب لن يصمد أكثر من ذلك. . ريهام على الأرض. . لماذا؟ لماذا؟ لماذا تركتموها وحدها؟ إلهي. . إنها حبلى. . حبلى. . حبلى. . حياة. . حياتان. . وهكذا. . هكذا. . ماتت ريهام. . ماتت؟ لم تعد موجودة. . خمسة عشر عاما. . كل تلك الأشياء التي لم يفعلها وليد أبدا. . ولن يفعلها أحمد أبدا. . أحمد. . الشجاع. . يا إلهي. . كم كان شجاعا. . مات. . مات. . رامي بتروا له ساقه. . لا. . أرجوكم. . لاااا. . اتركوا ساقي. . أرجوكم. . ساقي. . الله أكبر. . أرجوكم. . دموع مثل دموع طفل. . دموع طفل. . يا إلهي. . لقد بتروها له. . بتروها لرامي في المستشفى. . ياإلهي. . لماذا. . نفحة هواء رطبة. . هواء. . يمسح دموعه. . يمسحها. . يُجففها. . لماذا؟ ساعدني يارب على تحمل العذاب.

ساعدني يارب على تحمل العذاب

ساعدني يارب على تحمل العذاب

دَعْني أذرف تلك الدموع. .

إبراهيم مات. . مات. . لم يعد حيا. . أو. . إن كان حيا. . فهو يفعل ذلك على صعيد آخر. .

صعيد آخر من الموت. . الألم. .

لكن . . ألا يزال حيا؟ يتساءل . . يتساءل ـ ألا زلت حيا؟ ـ دمعة . . اثنتان . . هلال رفيع . .

رفيع كخيط يفصل الحياة عن الموت . .

سماء مملوءة بالنجوم ـ مملوءة ـ نقط مضيئة تتوج وجه السماء البديع . .

ودموع ـ دموع ـ غزيرة . . لا نهائية . . إبراهيم يفكر . .

يفكر . .

لا يزال هناك حياة من الدموع . .

يمكنك البكاء حتى الموت . .

الموت . .

لم يعد يهمه . .

إنه يكره . .

يكره . .

لا تسألوا ماذا يكره . . فى هذه اللحظة . . هو يكره الموت ويكره الحب . .

الحب الذى عذبه . .

يكره الجنود . .

يكره كل إسرائيلى يعيش على وجه الأرض . .

إنها كراهية غير مشروطة . . غير عقلانية . . لا يمكن شرحها . . تبريرها . .

ولا حتى انتقادها . .

كلا . . لا يمكن . . دموع . .

دموع أخرى . .

يدعو الله . . يدعو الله . . يوما ما سينتهى كل شيء - سينتهى - لكن . .

إبراهيم لم يَعُد موجودا .

رامى قابل بتر رجله بحسرة وألم . .

وابتلع قارورة دواء . .

محمد ترك عمله بالمستشفى . .

وكرس حياته . .

للصلاة . .

فَقَدَ كل صلة له بالواقع وصار مختلا . .

تم حجزه فى مصحة نفسية . .

نضال كره كل يوم بقى له من الحياة دون زوجته . .

والحياة الصغيرة التى أثمرها معها . .

إلى أن تَدَخَّل فى حادث تراشق بالرصاص ولَقِى مصرعه . .

على يد جنديين . .

جهاد ترك فلسطين وذهب إلى سوريا . .

حيث حاول عبثا أن يعيد بناءِ نفسه ووجوده . .

الآن ، يهيم على وجهه بلا روح ولا وعى . .

يعيش لأن تلك هى مشيئة الله . .

إبراهيم . .

إبراهيم يموت كل يوم ، فى نفس الوقت الذى يموت فيه أخ فلسطينى . . طفل . . امرأة . . رجل . .

فى نفس الوقت الذى تموت فيه الانتفاضة والذين يقاتلون من أجلها .

إهـــــداء

أهدى هذه القصة ـ التى تعد كل شخصياتها وأحداثها (باستثناء بعض الأحداث المنقولة عن وسائل الإعلام) من صنع خيالى بالكامل ـ إلى محمد جمال الدرة . . ذى الإثنى عشر عاما . . الذى مات مثل أحمد . . مثل وليد . . بدون سبب . . بشجاعة . . أهديه هذه القصة ، وأدعو لأجله أن يحظى أينما كان . . أينما وجد . . بشىء أفضل من الكراهية والموت فى تلك الحرب .

مطابع الشروق
القاهرة .٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٣٧٥٦٧٠ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ـ٨١٧٢١٣ـ فاكس . ٨١٧٧٦٥ (٠١)